وظيفة الاديب في الشعب

✡

نحن في عمرنا الادبي نحتاج الى نهضة قومية حرة تتوفر فيها قواعد التوجيه ويتمهد بهـا الاسلوب الموفق — بين الميل والقابل الانساني — حتى تحل بذلك ، المعرفة الواقعية محل الطيش الشعبي ، فان في استئثارنا عامل التضحية وفاعل العمل الجدي ، اعلاء لكلمة الشعب التي هي مجموعة ضرورات تتحد في افعال الحياة ، فاذا فسد في هذا الاتحاد مبدء قومي ، قامت على زواله امكانيات تكون اجدر بالبقاء من غيرها !

واذا كان الكائن الروحي يتميدع كالنور في مد خيوطه بالظلمة ، ويتلوّن بالتسرب والتأثر في تكييف المبادىء والاخلاق وقبول الصالح — او غيره — بدون تمييز ، فان في عمل الارواح سلطانـاً على العقل في فعل العقل ، يكوّن من الاعراض قبولاً ، ومن الاحجام اقداماً ، ومن الازدراء ايماناً وعقيدة !

ان حصانة الشعب المميزة بالخلق السمح ، لا تقوم على حضانة الدولة والزعامة لها فالحكومة والفردية ظاهرتان مؤقتتان تدأبان على حماية المصلحة الخاصة بتسخير المصالح الجماعية لاطاعة الشرع والمذاهب السياسية ، بل يكون امر الامة ملقى على عاتق الاديب الذي هو اقدر في التعبير عن رأيهـا من اي موجود آخر . . .

اننا نعني بالاديب فرداً موهوباً في الجماعة ، في خلقه سماحة منسجمة ، وفي تفكيره توجيه ناطق ، وفي نفسه عاطفة مقرونة بالوفاء ، اذا دعي الى حركة اصلاحية في اسرة الانسان كان معنى ذلك انه يدعو لوضع قواعد الاخلاق على مفهوم العواطف ، ومن ذلك انبثق معنى الرجل في معنى الحرية ، وقامت على ما قلناه نهضة الشعب في مجد الشعوب .

ان الاديب الشعبي مظهر من مظاهر التفوق في معنويات الاجتماع ، فمن واجبه ان يفهم وظيفته في البعث ، ومكانته في التدريب ، لكي يفهم الحي الناطق ان الاديب هو فوق النظام ، لانه هو الذي وضع النظام ، وانه فوق الدولة ، لان الدولة تتعهد السياسة وما فيها من فساد ، اما هو فيتعهد الاخلاق والمبادىء ، ولولا هذه لفسد ما في الكون جميعاً .

وليس كبيراً ان لا يقدر الشعب مواهب الاديب ، وان لا تمده الحكومة ، في سعيه الخالق ، فوظيفته ان يبدع امة في طبيعتها احترامه وفهمه ، مـا دام يعرف كيف يؤدي رسالته الانسانية تأدية كاملة ، ورب اديب كان في ادبه اكبر من حكومة وفي اخلاقه بمقدار شعب . .

على الاديب أن يتوقع من انتاج ادبه احياء امة يحيا هو في حياتها ، واذا آمن بغير ذلك ، تبدل احترامه الى ازدراء ، وانقلب ايمانه الى انتحار . . .

ديبورن — مشيغن　　　　　　　　　　عبدالله بري

صور وذكريات

فيصل الكبير

بقلم ساطع الحصري

☆ ☆ ☆

لقيته لاول مرة في دمشق ، عقب عودته من مؤتمر الصلح في باريز ، استعداداً لاستقبال لجنة الاستفتاء الاميركية .

ولا أزال اذكر تفاصيل تلك الملاقاة ، بكل تفرعاتها وجميع انطباعاتها :

دخلت عليه ، ليلاً ، في قاعة من قاعات قصر الجسر وكان جالساً على كرسي في احد اركان القاعة ، بجانب مصباح كهربائي شديد التنوير . وكان يرتدي لباساً يختلف بفوارق عما كنت قد اعتدت رؤيته على « شرفاء مكة » : فعوضاً عن الجبة السوداء الغليظة التي تستر البدن والعمامة البيضاء المفاطحة التي تتوج الرأس وتترك ذيلها يتدلى الى الجانب . . . فعوضاً عن ذلك اللباس الشريفي التقليدي ، كان يرتدي رداءاً رقيقاً ابيض وكوفية فضفاضة بيضاء . .

وكان بياض هذا اللباس ناصعاً ، لا يتخلله شيء غير زركشة العقال الذي يتلألأ حول الرأس ، وبريق الخنجر الذهبي الذي يبدو عند الخاصرة . وكان وجهه الطولاني الاسمر ، يظهر من بين هذه الكوفية البيضاء ، كقطعة من الجوز ، يلمع فيها عينان تفيضان بالحركة والحياة . وكانت حركات صدره تبدو بوضوح من تحت هذا الرداء الرقيق ، وتنم عن حيوية عنيفة وطموح شديد . . .

عندما سمع اسمي بدا على تقاطيع وجهه تحول فجائي ، وأبرقت عيناه بابتسامة عميقة ، ولم تلبث ان ظهرت دواعي هذا التحول وهذه الابتسامة ، بهذه الكلمات التي بدأها بشيء من التلعثم واتمها باداء متزايد الاندفاع :

— كلما كنت اقرأ لك واسمع عنك ، كنت اتخيلك شيخاً متقدماً في السن . ولهذا السبب سررت جداً من مشاهدتك هكذا ، في سن الكهولة* وعهد النشاط . وهذا من حسن حظ الامة العربية : سيكون امامك مجال واسع لتخدمها في حياتها الجديدة ، كما كنت تخدم الدولة العثمانية في عاصمتها . . .

ان العلاقة التي بدأت بيني وبينه تلك الليلة على هذا المنوال ، كان مقدراً لها ان تستمر وتتوطد بدون انقطاع ، مدة تزيد على اربعة عشر عاماً ، بقيت بجانبه ، وعملت في معيته حتى اواخر ايام حياته ، فاطلعت على دخائل نفسه في ظروف متنوعة ، وتبينت خصاله بكل تفصيل وبكل تأكيد .

* كنت اذ ذاك في السابعة والثلاثين من عمري .

رأيته في اشد ثورات الغضب ، واعمق حالات الرضى ، عاشرته في اتعس ايام الخيبة واسعد سني الفوز ، رافقته في أحرج ظروف حياته ، وفي أبهج ايام نجاحه : فكنت بجانبه عندما اخذ يسير — يوم ميسلون — في طريق المزة ، تحت وابل من قنابل الطيارات الفرنسية ، وبقيت بجانبه عندما كان يتردد فيما يجب عمله اولاً في الكسوة ثم في درعا ، ورافقته في الباخرة عندما انتقل من بورت سعيد الى نابولي ، مودعاً حياة حافلة بشتى الاعمال والذكريات ، وملتمساً حياة جديدة تكتنفها انواع الاحتمالات . كما انني كنت بجانبه عندما اخذ يتجول في مختلف انحاء العراق ، بعد انتخابه ملكاً عليه . وبقيت الى جانبه طوال سني كفاحه وعمله هناك . عاشرته معاشرة مستمرة خلال جهوده المضنية في سبيل حل المشاكل الداخلية والخارجية التي كانت تتوالى بدون انقطاع على مملكته الجديدة . رأيته في شتى الاحتفالات الرسمية وفي افخم الفنادق الاوروبية ، وتحت ابسط الصرائف البدوية ، والى جانب ابدى الخيم الصحراوية . فتمكنت من ملاحظته ملياً في قاعة عرشه ، ومكتب قصره ، وغرفة نومه ، وفراش مرضه ، في مختلف ايام آلامه وافراحه . .

ونظراً الى كل ما لاحظته في هذه الظروف المتنوعة ، خلال تلك السنين الطويلة ، علمت بانه كان يمتاز بخصال ثمينة جداً ، تجعله وجعلته عظيماً بكل معنى الكلمة .

انه كان ذكياً ، حاد الذكاء ، ومرناً خارق المرونة . كان يتمتع بحيوية شديدة ، وفعالية لا تعرف الكلل . وكان نادر المثال في روح المثابرة وفي شيمة التعقيب . وفوق كل ذلك ، كان يحمل في طيات جنبه وطنية حارة عميقة ، تدفعه الى العمل في سبيل الوطن بدون انقطاع ، وتجعله مستعداً لتضحية كل ما هو عزيز عليه ، عند الاقتضاء .

ان اجتماع هذه الاوصاف والمزايا في نفس الملك فيصل ، جعل حياته مثالاً رائعاً للتطور الدائم ، والتقدم المستمر ، والارتفاع السريع ، كان كل يومه احسن من امسه بدرجات كبيرة ، فأصبح البون بين بداية حياته السياسية ونهايتها شاسعاً جداً . وكان من سوء حظ الامة العربية ، ان شعلة حياته انطفأت في الوقت الذي كانت شخصيته السياسية وصلت فيه الى اقصى درجات النضوج واشد حالات التوهج . . . وفي الوقت الذي اصبحت فيه الامة

احوج ما تكون الى خدماته . .

حقاً انه كان ذكياً ، حاد الذكاء يتفهم ويتمثل القضايا المتنوعة بسرعة كبيرة ، وينفذ الى دقائق الامور وخفاياها بصورة تثير الاعجاب .

انه كان مرناً ، خارق المرونة : يتكيف بسرعة كبيرة ، وفق مقتضيات الاحوال والظروف ، من الوجهتين المادية والمعنوية .

فاذا ما رأيته على مائدة اوروبية ، خلته رجلاً عريقاً في الحياة الاريستوقراطية الغربية ، نشأ — منذ نعومة اظفاره — على ادق تقاليد البلاطات الملكية . واذا شاهدته في خيمة بدوية ، خيل اليك انك امام رجل لم يفارق البادية ، فلم يأخذ بادنى نصيب من متارف المدنية .

انه شخصيته البدوية — ومقدرته العشائرية — تجلت امامي على اوضح الصور — لأول مرة ، في ظل بيت شعر مكشوف الجوانب ، اقيم بالقرب من محطة السكة الحديدية في درعا : لقد جلس الملك فيصل القرفصاء ، بالرغم من ملابسه العسكرية ، واخذ يحادث الشيوخ المجتمعين حوله بلهجة بدوية صرفة باوضاع بدوية بحتة ، كأنه واحد منهم ، ولا يختلف عنهم أبداً : كانت كل كلمة من الكلمات التي يلفظها ترافق حركة او اشارة من يده ، او رأسه ، او عينه ، او جذعه ، او منها جميعاً . وكانت يده — على وجه اخص — لا تنقطع عن الحركة والاشارة ، بصور شتى ، وكانت هذه الحركات والاشارات تزداد اتساعاً وارتساماً بفضل العصا الصغيرة التي كان يمسكها ، ليستعين بها على التعبير عن افكاره خلال الحديث ، تعبيراً مجسماً . فانه كان يوجه العصا تارة الى اليمين وطوراً الى اليسار ، تارة الى الاعلى وطوراً الى الاسفل ، وكان يحركها في بعض الاحيان على الارض ، وطوراً يرميها من يده بوضع خاص ، ثم يعود ويتناولها بوضع آخر . . . كل ذلك تمشياً مع سياق الكلام ، ومقتضيات الحديث . والشيوخ من حوله يصغون اليه بانتباه عميق ، كأنهم مسحورون باطواره واحاديثه وعندما يجيبون على اسئلته ، يبدأون الكلام بقولهم « والله يا بو غازي . . . »

ولكني رأيته بعد شهرين من ذلك التاريخ في احد الفنادق الايطالية الفخمة ، يبدو للناظرين كأمير اوروبي ظريف ، يجذب الانظار بلباقته النادرة واناقته المختارة . وقد سمعت الكثيرين من نزلاء الفندق — من رجال ونساء — يتهامسون او يتحادثون عنه باعجاب عميق : ما اظرفه ! . . . ما انبله ! . . . ان آثار النجابة والاصالة تبدو على محياه بكل وضوح . . . حقاً ، انه امير ممتاز ! . . . » اني رأيت كل ذلك رأي العين ، ولذلك لم استغرب عندما قرأت بعد مدة — ما كتبه عنه بوانكاره ، في مجلة العالمين الفرنسية ، بعد انفكاكه من رئاسة الجمهورية ، احتجاجاً على فكرة سفر الملك فيصل الى انكلترة : « نحن نعرف انه يتمتع بشخصية جذابة ساحرة ، فعسى ان لا يؤثر في اصدقائنا الانكليز هناك ، تأثيراً يؤدي الى تعكير صفو العلاقات القائمة بينهم وبيننا . . » .

ان خصال هذه الحياة الغربية العالية ، من ظرافة ولباقة واناقة ، قد اشتدت وتقوت وتكاملت عند الملك فيصل على الدوام ، ولكنها لم تجرده عن شخصيته البدوية في يوم من الايام . فكانت تلك الشخصية تعود الى الظهور كلما اقتضت ذلك الظروف والاحوال وقد سمعته يقول مراراً — في سورية والعراق — انا لم اطلب العرش للراحة او الصيت والابهة ، بل طلبته وأطلبه للعمل والخدمة . فاذا لم أجد مجالاً للخدمة التي اصبو اليها ، لا اتردد ابداً عن ترك العرش والعودة الى البادية . »

اني لا ازال اذكر ما حدث في اول مائدة بدوية شاركته فيها . وكان ذلك في « صريفة كبيرة » ، بين احياء العمارة في العراق . كانت المائدة بدائية وبدوية بكل معنى الكلمة : على صينية كبيرة القطر ، تل من الرز الكثير الدهن ، وعليه خرفان سمينة ؟ ولم يكن هناك من آلات الاكل شيء غير المعالق المعدة لشرب اللبن . جلس الملك فيصل على الارض ، ببشاشته المعهودة وشمر أردانه الى كتفه ، واخذ يتناول الطعام على عادة البدو تماماً . مد يده الى الخروف ، وقطع اللحم باصابعه الطويلة ، وبعد ذلك اخذ ملء كفه بالرز ، ثم يعصره عصراً يؤدي الى سيلان الدهن من بين الاصابع ، وطفق يأكل بشهية وبساطة ، كأنه لم يأكل طول حياته على اسلوب غير هذا الاسلوب . اما انا ، فقد حرت فيما يجب عمله في هذا الوضع للوهلة الاولى . ثم اخذت استعمل الملعقة مقام السكينة ، اقطع اللحم بطرفها الحاد . واستعنت بما تذكرته عن طريقة طعام اهل الصين : وصرت ارفع بالملعقة مقداراً من الرز على الخبز المرقق ، ثم ارفع عليه اللحمة المقطوعة وتوصلت بهذه الصورة ، الى تناول الطعام دون ان الوث يدي واصابعي بالدهن او اللحم ، على الرغم من حرماني من الشوكة والسكين .

كان الملك فيصل قريباً مني ، لا يفصل بيني وبينه الا رجل واحد . ولاحظت انه تتبع حركاتي هذه بشيء من الاهتمام . وعندما شاهد الطريقة التي ابتكرتها ، قال لي مبتسماً : — دبرتها ؟! .

وانصرفت انا الى الأكل ، مع شيء من الارتياح ، لتغلبي على المشكلة التي جابهتني على هذا المنوال . غير ان ارتياحي هذا لم يدم طويلاً : لانني شعرت ، بعد مدة قصيرة ، بقطعة كبيرة من اللحم

المدهن تنقض على قفا يدي، بكل حرارتها وعجلتها، فتفسد علي كل الجهود التي كنت بذلتها . . . انه كان قطّع هذه اللحمة، ورماها فجأة على ظهر يدي المشغولة بدفع الرز على الخبز المرقق، وانطلق — في الوقت نفسه — يقهقه قهقهة عالية، ويقول :

— عوّد نفسك يا شيخ ! .

عوّد نفسك، يا شيخ ! هذه العبارة التي القاها عليّ في الظرف الذي ذكرته آنفاً، انه كان يعمل بها على الدوام، ويعود نفسه على جميع الاعمال الملائمة لجميع الظروف . .

ولم تنحصر آثار هذه المرونة التي كانت تمكنه من التكيف مع مقتضيات الظروف والاحوال، بالامور المادية وحدها، بل كانت تشمل الامور المعنوية ايضاً : فانه كان شديد المرونة في سياسته الداخلية والخارجية وسريع التكيف مع ما تقتضيه الظروف المتتالية، كما كان شديد المرونة وسريع التكيف في حياته المادية .

وهذه المرونة الشديدة، كان يمكن ان تصبح من النقائص التي تضر بالصالح العام وتعيق التقدم والنجاح . . لو لم تكن مشفوعة بخصلتين مهمتين : شدة الحيوية، وحرارة الوطنية .

ان سياسة الا «خذ وطالب» التي وضعها لنفسه ولدولته — والتي اوصلت العراق الى اوج رفعته — كان يمكن ان تصبح سياسة مضرة، لو لم تحمل نفس فيصل الكبيرة طاقة لا تنضب من روح النشاط والمثابرة، ولو لم تؤجج في اعماق صدره سعيراً من الوطنية الخالصة . .

ان هذه السياسة المرنة، كان يمكن ان تؤدي الى « الاكتفاء بما تم اخذه » والى « التقاعس عن طلب المزيد منه » . . لو لم تحركه على الدوام . . هذه الوطنية الطامحة التي لا تكتفي بالنذر الذي وصل الى اليد، بل تبقى تطالب بما وراء ذلك وتصبو الى الاتم فالاتم على الدوام . . هذه الوطنية الجامحة لا تتخدر ابداً بشعور الفوز النسبي الذي احرزته، بل تواصل العمل في سبيل الوصول الى الغاية القصوى التي تصبو اليها، وتعتبر كل خطوة من خطوات الفوز مقدمة للخطوات التالية ومقفزاً للوثوب الى الامام . . .

لقد رضخ فيصل الاول مراراً الى الضرورات الخارجية تارة والى الضرورات الداخلية طوراً، ولكن رضوخه هذا لم يكن في يوم من الايام من نوع القنوط والاستسلام، بل كان من قبيل الوقفة التي تساعد على تكشيف القوى والاستجمام . استعداداً للكفاح الجديد، والجهود الجديدة، وفق خطط محكمة تام الاحكام . .

انه ما كان يقنط من مرارة الخيبة، ولا كان يسكر من حلاوة الفوز . وما كان ينفك عن الايمان بالفوز، حتى في أشد ظروف الخيبة، وما كان ينقطع عن التزوع الى الفوز الاعظم، حتى خلال ابهج ساعات النجاح .

كان مؤمناً بمستقبل الامة العربية، ومتحمساً نحوها بحب خالص عميق . .

واستطيع ان أقول : ان حجر الزاوية في بناء شخصية فيصل الفذة، كان هذه الوطنية العميقة . فأن جميع خصاله العقلية والخلقية — من ذكائه الحاد الى حيويته الشديدة — ما كانت لتستطيع ان تحقق ما حققه من النهوض والتقدم بالعراق، لو لم تكن كلها راضخة لقيادة هذه الوطنية الحارة، ومدفوعة بقوة تلك الوطنية على الدوام . .

وطنية الملك فيصل . . . كم وكم لي من الدلائل والشواهد على عمقها وقوتها .

انا لا ارى مجالاً لاستعراض تلك الدلائل والشواهد في هذا المقام . غير اني ارى من الضروري ان اسجل هنا واحدة منها — لاظهر عمق تلك الوطنية وشدتها، بكل وضوح وجلاء :

طلبني يوماً وقت العصر، فذهبت لفوري الى البلاط . عندما وصلت الى باب القصر، علمت بانه يتجول في الحديقة، فتوجهت الى جهة الشط، لملاقاته هناك . وبعدما تقدمت قليلاً في ذلك الاتجاه، رأيته من بعد، متجولاً مع جماعة من حاشيته على السدة، وعندما لمحني خلال تلفتاته، غيّر اتجاهه بغتة، واخذ يتقدم نحوي ونحو القصر، بخطى سريعة . وعندما التقينا في منتصف طريق السدة، صافحني، ثم وجه الي بعض الاسئلة السريعة : « كيف حالك ؟ كيف خلدون ؟ امه ؟ اخته ؟ . » وبعد ذلك واصل السير نحو القصر، بخطى واسعة وسريعة، دون ان يقول شيئاً . .

وظهر لي بوضوح عندئذ انه كان مشغول البال بقضية مهمة، يريد ان يحادثني عنها، ولكنه لم يشأ ان يذكر شيئاً منها بحضور احد من رجال حاشيته . ولذلك بقي صامتاً الى ان وصلنا القصر، ودخلنا القاعة الكبيرة، واختلينا فيها .

جلس على كرسي في اقصى زاوية القاعة، واشار اليّ بالجلوس الى الكرسي الذي بجانبه، ثم خفض بصره نحو منضدة السجائر التي تقع بيننا، ووقف في هذا الوضع مدة من الزمن، وقفة من يريد ان يجمع شتات افكاره، وينظم عناصر حديثه . ثم رفع رأسه بغتة، وهزه هزاً خفيفاً، بوضع من اتخذ قراراً خطيراً، واخذ يتكلم :

بدأ الحديث بلفظ كلمة «غازي»، ثم كرر هذه الكلمة — حسب عادته عندما يتكلم عن شيء خطير — « اقول : غازي » .

ولم يكد يلفظ العبارات الاولى من حديثه، الا وقد تبينت

كل المسألة ، بكل ما فيها من خطورة وتعقيد .

غازي ، ابنه وولي عهده ، غازي الذي كان تركه هناك في الحجاز منذ بداية الثورة ، تحت رعاية جده الملك حسين . ولكنه – بعد ان استقر في العراق – رأى من الضروري ان يجلبه الى بغداد ، ليشرف على تربيته وتعليمه بنفسه ، وينشئه التنشئة التي يتطلبها مستقبله . ويظهر ان البعض ممن كانوا ساهموا في تعليم الملك فيصل نفسه ، ارادوا ان يتولوا تعليم غازي ، ولكنهم لاحظوا بانه لا يفهم ما يلقى عليه من الدروس . وما نقلوه الى الملك فيصل في هذا الصدد ، ولد في نفسه خوفاً من ان يكون في ذكاء غازي شيء من النقص ، وحمله على التفكير في الامر بصورة جدية .

–تعرف يا ساطع ، باني احب اسرتي ، واحب ابني غازي ، واحب ان اؤسس اسرة مالكة . . . ولكني احب امتي اكثر من اسرتي واكثر من غازي . . . فاذا كان الامر حقيقة كذلك ، واذا كان غازي لا يتصف بالذكاء اللازم لولي عهد وملك ، اقول : اذا كان غازي لا يخلو من غباوة . . فانا سوف لا اتردد في العمل بما يحتمه علي الواجب الوطني . سأجمع مجلس الامة ، وسأقول : اني اجعل الامة في حل من ولاية عهد ابني ، واترك لها الحرية التامة في تقرير ما يجب عمله في هذا الشأن .

قال ذلك ، بصوت مختنق ، ولكنه مملوء بأداء العزم والحزم . ثم كرر :

–احب ابني ، ولكني احب امتي اكثر من ابني . . فعلي ان اقوم بواجبي نحوها . قبل كل شيء . . .

ولقد اصغيت الى حديثه هذا ، بسكون تام وبتأثر عميق . اذكر بانني كثيراً ما جوبهت باستشارات من بعض الآباء والامهات عن بعض المشاكل والمسائل المتعلقة باولادهم خلال حياتي التربوية الطويلة . غير اني لا اذكر ان واحدة منها بلغت من الخطورة مبلغ خطورة هذه الاستشارة .

انني لم اكن قد رأيت الامير غازي – حتى ذلك اليوم – الا مرة واحدة . فقلت للملك فيصل :

مع الاسف انني لم اخالطه الى الآن مخالطة تمكنني من الحكم في الامر حكماً قاطعاً . ومع هذا استطيع ان اقول : انني لم الاحظ على سحنته وشكل جمجمته ، ما يدل على نقص عقلي فيه .

وبعد هذه المقدمة ، سردت عليه بعض المعلومات العامة :

ان علماء النفس والتربية يقسمون « التأخر » الذي يلاحظ عند الاطفال الى نوعين اساسيين : النوع الاول هو التأخر الذي ينتج من التأخر في الدرس والتعلم ، والنوع الثاني ، هو التأخر الذي ينجم عن نقص طبيعي في القابليات الفكرية . ان النوع الاول ، مما يمكن تلافيه تلافياً تاماً ، بتدابير تربوية وتعليمية خاصة ، بعكس النوع الثاني الذي لا تمكن معالجته معالجة تامة . يلوح لي ان حالة الامير غازي ، تنطبق على النوع الاول : انه تأخر في الدرس – المدرسي منه والطبيعي – بالنسبة الى عمره ؟ ونتج عن ذلك نقص في قواه الفكرية الراهنة . وهذا مما يمكن تلافيه بسهولة . ومع ذلك ، انا اقول هذا ، دون ان اؤكده . فاسمحوا لي ان اواجهه ، وافحصه عدة مرات ، قبل ان اعطي حكماً قاطعاً في الامر . .

ان ايضاحاتي هذه بسطت على قلبه شيئاً من الطمأنينة ، وازالت عن وجهه علائم التوتر والانقباض . ومع هذا ، بعد الاصغاء الى ما قلته اصغاء المرتاح المتفائل عاد الى تخوفه فقال :

–ولكني اريد ان اتأكد من الامر . ادرس المسألة جيداً ، وقل لي رأيك النهائي لا تفكر بي ، لا تفكر بغازي . فكر بالامة فكر بالوطن .

قال ذلك وانتصب في كرسيه ، وانا انتهزت فرصة هذا الانتصاب ، للنهوض والانصراف .

وعندما قام يصافحني مودعاً ، قال لي بلهجة ملحة ، كلها جد وحزم

– اعرف يا ساطع . انك رجل صريح . تقول كل ما تعتقد به بدون مواربة . . غير اني ارجوك ان لا تخرج عن ديدنك هذا في هذه المسألة : لا تفكر بي ، لا تفكر بغازي ، فكر بالامة ، فكر بالوطن . .

ودعته بعد ان طمنته على ذلك وقبل ان اخرج من الباب ، سمعته يكرر مرة اخرى .

–قلت لك يا ساطع ، لا تفكر بي ، لا تفكر بغازي ، فكر بالامة فكر بالوطن .

لبس

هنا مجال للبحث عما تم بعد ذلك . غير اني ارى من الواجب علي ان اصرح بانني عدت اليه بعد عدة ايام اطمئنه على صدق تخميني الاول ، واؤكد له ان عدم فهم غازي لما القي عليه من دروس ، لم يتأت من نقص في قابلياته الفكرية ، بل نتج عن تأخره في الدرس والمخالطة تأخراً شاذاً ، بحكم حياته السابقة . وان تلافي ذلك يتطلب السير على خطة محكمة ، بوسائط خاصة ، بواسطة معلمين ومربين مجدين ويقظين . .

اني لا ازال اذكر الفرح الذي تملكه عندما سمع مني هذا الحكم ، والحماس الذي اظهره في تطبيق الخطة التي اقترحتها لتعليم غازي وتربيته . . .

غير اني لا ازال اذكر – في الوقت نفسه – رنين صوته الذي

–البقية في الصفحة ٥٧–

كانت وحدها ...

☆

عرفتها تضحك ساعة كان الضحك بكاء ، وتبكي ساعة كان البكاء ابتساماً ،
غمضت في نفسها مقاييس الحياة واستغلقت عليها خطوط الألوان ، واشتبهت مسالك الأجنحة .

***

رأيتها في الحديقة تمسح باطراف شفتيها دموع العصافير وترتشف عصارة الليل في حبات الندى ارتشافاً طويلاً .
صبّ يا ساقي ، يا محرك الجديدين ، في هذا العشي العميق دنان خمرتك المقدسة .
خمرة عصرها الخيال والدم من قلب العتمة ووحشة الجراح ، ثم ادفع هذا النهار الواقف بيننا كأنه السواد في خد الأمل .

***

وحدها كانت وحدها ، على شرفة البيت جمجمة متمسكة بقضبان الحديد ، تتساقط عليها الامطار وتصفعها أسواط الرياح الباردة ولكنها لم تتزحزح كأنها هي نفسها النافذة المطلة الى البعيد ... الى ما وراء هذه الحديقة الضيقة ...

***

ودارت على نفسها كما تدور دواليب المطحنة بين هدير الماء وتيار الريح « وموال » طحان ساهر .
ثم انكشحت قليلا عن عينها بعض الغمامات واطلّ شيء يلمع من السماء ، تكسرت اضواؤه على شيء آخر يلمع في الارض .
لم تتحرك بل دارت زوايا السماء في محاجر عينها المركزة .

***

استيقظت البارحة من حلمها ويد من العطف والدفء والحنان تمسح جبينها .
ما أعجب الناس يظنون الألم داء عضالا يجب ان يشفى ، وينسون ان الحياة اذا سدت فيها منافذ الالم اصبحت كالشجرة التي سدت فيها مسارب الغذاء .
ليس الالم كل النشوة ولكنه طريق الشوك الى طمأنينة النشوة السامية .

***

في حكايات جدتي : ان البلبل اذا غنى بكى واذا تعب من النهار غلّ على الصمت في عب الليل ...
وجاء امس البلبل الاسود يرف بجناحيه على حافة نافذتها فاستيقظت على رنة صوته .
كان ضوء القمر قاسياً قوياً وكانت الارض كأنها وجه النهار ومضى البلبل يغرد في اوائل الصبح .
مسكين هو البلبل اشتاق القمر غناءه فقام يغرد له فيعكر باغاريده نوم العصافير .
واختفى القمر وراء السحب فاذا برجفة تدب في اجنحة البلبل فيلف من الوجل والخجل رأسه تحت ريشه ويغل في الحشائش ويخنق طي حنجرته همسات قلبه .

***

وفي حكايات جدتي ايضاً ان اصحاب الاخيلة والاطياف يعيشون على الارض كاصحاب الاجنحة والمناقير ، يضلهم ضوء يلوح او برق يلمع .

***

متى يا ترى تصبح الحياة ضوءاً ثابتاً في سماء ثابتة ، في نفس ثابتة ، لا ترج زواياها العميقة على صخرات المبهم الغامض ...

***

هي فتاة تائهة ، رأيتها في الهزيع الاخير واقفة في نافذة غرفتها تحلم وحدها احلام البلابل ، وترى رؤى العجائز .

سميرة حموي

سهم من الارض الى القمر

بقلم نقولا الحداد

☆

كان الانسان منذ القديم يحلم انه طائر. والانسان لا يحلم الا بامانيه. فكان يرى الطيور حائمة فوقه. فلماذا هو لا يطير؟ واخيراً طار.

ثم رأى القنبلة الصاروخية تسابق الصوت وتندفع بين شاطىء المانيا الشمالي ولندن مسافة ٢٠٠ ميل فلماذا هو لا يصنع صاروخاً (سهماً نارياً) اسرع من القنبلة الصاروخية يندفع به الى القمر؟ وماذا يمنع ان يكون هذا الصاروخ غواصة جوية تحمل اشخاصاً الى القمر؟ هذه امنية انسان اليوم. وستكون امنية انسان الغد الطواف بين النجوم.

حقاً ان هذا الانسان لا يقف طموحه عند حد. فالى الآن لم ينته من استعمار الكرة الارضية. بل لا يزال نحو نصفها مجاهل غير معمورة. فما باله يبتغي استعمار القمر فالنجوم؟

هذا الانسان مفتون بتخيلاته فمصيبته في عقله المتمادي في التخيل يريد عقله ان يتبعه جسده حيثما يتقذف به خياله. وخياله ابعد من بصره. يرى اطراف المجرة فيتخيل نفسه طائفاً في حوافيها ويريد جسده على ان يقوم بهذا الطواف.

ما وقف طموحه عند هذا الحد. بل راح يغزو عالم الارواح. وهو عالم ابعد جداً من حدود العوالم المادية. يكفي الروح انها تبتغي الرحيل من المريخ الى الشعرى اليانية ففي اللحظة التي تكون فيها عند المريخ اذا هي عند الشعرى اليانية. فالروح اشد طموحاً من العقل. والعقل يحاول ان يغزو عالم الارواح فيستحضرها ويستجوبها صرنا نخاف ان يغزو هذا الانسان السماء موطن الملائكة. وقد تبلغ قحته ان يطمح الى غزو عرش الالوهية. اللهم غفرانك. اكسر من غلواء هذا الانسان المغرور.

لله منك ايتها الروح. لقد ارهقت العقل بآمالك. والعقل ارهق الجسد بامانيه.

***

اجل، بعد القنبلة الذرية والقنابل الصاروخية كثر التحدث عن قذف قذيفة صاروخية من الارض الى القمر. حتى صار في نظر الكثير من المتحدثين والسامعين او القارئين ان السفر الى القمر هو في امكان هذا الانسان الذي فلق الذرة واستصدر قوتها الهائلة دفعة واحدة. هذا الانسان يفعل العجائب والخوارق. اليس الاتصال المادي بالقمر اعجوبة اعجب من الصاروخ اذا كانت تدفعه قوة الذرة.

الا يمكن ان نقذف قذيفة الى القمر وهو اقرب الينا نحو ٤٠٠ مرة من الشمس؟ واقرب الينا من المريخ نحو ١٢٠ مرة في ميعاد اقترابه الينا. بيننا وبين القمر (بالمقياس الفلكي) «رمية حجر». وحين كنا اطفالاً كنا نمد بايدينا لكي نمسك القمر وكنا نطلب من والدينا ان يأتونا بالقمر.

القمر لا يبعد عنا اكثر من ربع مليون ميل. وما هو الربع مليون ميل في مسافات الكواكب والافلاك؟ وما هو عند الـ ٩٣ مليون ميل بُعد الشمس عنا؟

نعم نستطيع ان نرسل صاروخاً (شهاباً) الى القمر فيصل اليه ويعود الينا عنه. واذا اودعنا اشخاصاً علماء في جوف هذا الصاروخ الذي يكون اضخم من سفينة جوية امكنهم ان يخرجوا منه متى وصل الى القمر ويدرسوا قمريته (اي جغرافيته) ويخبرونا اشياء نجهلها عن اخينا القمر او بالاحرى ابن ارضنا..

كيف يكون لنا ابن او أخ يا قوم ولا نعرف عنه الا الظواهر السطحية التي لا تغني فتيلاً؟ يكفي ان نرى ارضنا منه بحجم خمسين قمراً

تراها منه بقدر «صحن» الاوبرا مثلا من غير مرصد . فكيف اذا كان معنا مرصد هناك فنراها منها اكبر من قبرص . و اذا تم مرصد كاليفورنيا المنتظر الذي سينجز صنعه في هذا الصيف القادم فنراها كما هي ، نراها بنظرة واحدة . وسنرى القمر حينذاك من الارض كما نرى جبل لبنان من بحر بيروت .

هذه اماني في احلام ناس هذا العصر . فما ادرانا انها تتحقق غداً ما دام العلم سائراً بسرعة فائقة كسرعة النيزك .

***

فلنرَ هل يمكن قذف صاروخ الى القمر او قذف غواصة جوية في الفضاء بين الارض والسماء ؟

معلوم ان بيننا وبين القمر فراغاً رحيباً لا مادة فيه . ولا هواء ولا ماء ولا شيء سابحا في الفضاء . وطبقة الهواء التي تغلف سطح الارض الكروي لا يتجاوز سمكها ٦٠ كيلومتراً وقد تعلوهـا طبقات هواء خفيفة جداً تكاد تكون اثيرية لعدم كثافتها ولا تزيد على مئة كيلومتر الى ٥٠٠ في رأي بعض المحققين .

فالصاروخ الذي يندفع في الهواء بقوة محرك (Motor) يعتمد على الهواء الذي تصفقه جوانحه او مراوحه . فاذا لم يكن ثمت هواء تدفعه مراوحه الى الوراء فلا يندفع هو الى الامام برد الفعل اذ لا رد فعل . وفي الفراغ المطلق لا فائدة من المحرك (الموطور) . اذاً فبأية قوة ينساب الصاروخ في الفراغ المطلق .

منذ نحو ٣٥ سنة رأى الاستاذ جودارد من علماء بوسطن حلًا لهذه المشكلة وهو ان يكون الصاروخ مركباً من عدة صواريخ متداخلة بعضها ببعض اي بعضها ضمن بعض بحيث انه متى فرغت قوة الصاروخ الخارجي وصار في الفراغ المطلق تنطلق قوات من الصاروخ الذي ضمنه وهذا الصاروخ يدفع الذي كان حوله فيندفع هذا الى الوراء وذاك يندفع الى الامام برد الفعل . ومتى فرغت قوة الثاني انطلقت قوة الثالث الذي ضمنه وفعل بالثاني كما فعل هذا بالاول . وهكذا دواليك الى ان يصل الصاروخ الاخير الى الهدف قبل ان تفرغ قوته .

هكذا تخيل هذا الاستاذ . ولكن اليس لهذه النظرية عيب او عيوب . فلنرَ .

***

هل نسي جودارد واخوانه قوة الجاذبية التي هي رسن او لجام بيد الارض تكبح به جماح كل جسم ينطلق منها ليعود اليها يجب ان تكون سرعة الجسم المنطلق من الارض اعظم من قوة جاذبية الارض ولو قليلًا لكي يقطع الرسن ويخرج من تحكم جاذبية الارض .

هنا لا بد من هذا السؤال . كم يجب ان تكون قوة هذا الصاروخ المركب لكي يفلت من يد جاذبية الارض ؟

القنبلة الصاروخية التي كانت المانيا تقذفها الى لندن كانت تسير بقوة نصف مليون حصان لكي تقطع ٢٠٠ ميل في مدة ربع ساعة . يعني كانت تسير باسرع من الصوت بضع مرات . فكم حصاناً يجب ان تكون قوة صاروخنا .

لا ندري . نترك الامر للمهندس الميكانيكي العبقري الجبار الذي يعمل « تصميم » هذا الصاروخ . وهب هذا المهندس النابغة نجح فهل تنجح عملية الصاروخ .

اذا خلصنا من عقبة احصنة الصاروخ نجد امامنا عقبة تصرع هذا العقل الجبار المشمخر المعتز بجبروته . عقبة جاذبية الارض التي اشرنا اليها آنفاً . وهي عقبة لا نظنها ترتقي في عالم الفعل وان كانت قد ترتقي في عالم الفكر .

نحن نعلم ان اية قذيفة قذفناها من الارض الى الفضاء قذفاً سمتياً او قذفاً افقياً لا بد ان تكبحها جاذبية الارض الى الارض . يجب ان تكون سرعة القذيفة بالغة الحد الذي لا تعود الجاذبية عنده ذات سلطة عليها — يجب ان تكون خمسة اميال بالثانية على الاقل (احفظ بالك) (اميال بالثانية) (اي ٣٠٠ ميل بالدقيقة) (سرعة سطح الارض عند خط الاستواء ٣٠ كيلو متراً بالثانية) .

ومع ذلك اذا كانت للقذيفة هذه السرعة الهائلة (٥ اميال بالثانية) فلا تخرج من منطقة جاذبية الارض بل تستميلها الجاذبية وتدعها تدور حول الارض الى الابد كأنها قمر صغير .

لكي تخرج القذيفة من منطقة جـاذبية الارض يجب ان تكون سرعتها في الثانية سبعة اميال . الجاذبية كما هو معلوم من ناموسها تنقص كمربع المبعد ، وبعد ٤٠٠٠ ميل تصبح قوة الجاذبية ربعها . فاذا استطاع الصاروخ ان يبقى بسرعة ٧ اميال في الثانية بعد ٤٠٠٠ ميل خرج من تحت سلطة الجاذبية . وبعد ذلك يسير بقوة الاستمرار ولا يبقى من داع لمحرك ولا لوقود في مدة ساعة ونصف يخرج الصاروخ من تحت سلطة الجاذبية الارضية ويصبح حراً طليقاً .

فهل في وسع المهندسين الميكانيكيين العباقرة ان يمنحوه هذه القوة العجيبة

حينئذ تكون هذه القذيفة قد قطعت من المسافة بيننـا

هل تنهض مخطوطاتنا بتاريخنا

بقلم يوسف اسعد داغر

امين دار الكتب اللبنانية

☆

عرفنا في مقالنا السابق دور المحفوظات العامة وما يقوم عليها من الاهمية والفوائد كما استعرضنا اهم دور المحفوظات في الشرق، وهي الموجودة اليوم في مصر وفي تركيا ورأينا كيف ان مجاميع هامة من هذه المحفوظات مصونة بصورة علمية ومنسقة فنياً في دور المحفوظات الكبرى في الغرب.

وها نحن نتابع الكلام في هذا الموضوع الخطير فنتساءل اليوم هل بامكان محفوظاتنا الشرقية النهوض بتاريخنا العربي والاسلامي وهو لعمري موضوع خطير الشأن تلفت اليه انظار كبار الاساتذة في التاريخ والاجتماع والاقتصاد في الجامعات والكليات الذين يعنون بمشاكل تاريخنا القومي العام في الشرق العربي.

اهم ودائع محفوظات تاريخنا الشرقي والعربي والاسلامي

التاريخ علم باصول يقوم قبل كل شيء، على المصادر والمراجع الاصيلة قديمة او حديثة اساسية او فرعية والا استحال علم التاريخ، بغير هذه الاصول الى اعمال الخيال، تعصف به المخيلة الشرود والمراد بـ « المصدر او المستند » كل اثر يتركه الانسان الماضي محيزاً منه الفكر

وبين القمر ٢٤٩٣٠٠ ر ٤٠٠٠ نحو ١ على ٦٢

حينئذ « ترمح » هذه الغواصة الفضائية على هوى ركابها وهم يقولون : يا ما تغزلنا فيك يا عفريت الليل وانت تتدلل وتتشمخ . ها نحن واصلون اليك يا شقي

ولكن لا . لا يظن ركاب هذه الغواصة التي ربحت السباق انها نجت فلا تلبث ان تصدمها جاذبية الشمس المتسلطة على الارض ولعلها تضطرها ان تدور في مدار شمسي كانها سيار يدور حول الشمس

دعنا من هذا الظن فقد يكون لها بقوة اندفاعها نجاة من سيطرة جاذبية الشمس . ولكنها لا تلبث ان تصطدم بجاذبية القمر نفسه على بعد ٥٠ الف ميل منه . جاذبية القمر على سطحه نحو ١ على ٦ من جاذبية الارض على سطحها . ومهما لطفت ورأفت بالصاروخ فلا بد ان تجذبه رغم انفه ولا بد ان تنقض على القمر انقضاضاً هائلاً فينسحق عليه هباء منثوراً .

اذاً فعلى مصمم الصاروخ المركب ان يحسب هذا الحساب ويجعل فيه جهازاً (فرملة) ترده الى الوراء لكي يهبط رويداً وينزل الى القمر نزول الطائرة في المطار .

اذا بقي هذا الصاروخ مندفعاً بسرعته الاستمرارية اي بنسبة ٧ اميال بالثانية ففي اقل من ٩٠ ساعة يدخل في منطقة جاذبية القمر الخطرة . فعلى المهندس ان يجعل له قوة عكسية بسرعة ميل في الثانية على الاقل لكي يأمن خطر الانقضاض الساحق والا فسرعته وجاذبية القمر يجعلان هبوطه داهية الدواهي .

فاذا نجح في انزاله كالطائرة الى المطار يخرج العلماء منه سالمين الى جبال القمر وفيافيه واوكاره وفوهات براكينه الخامدة وعلى افواههم كمامات مشبعة بالاوكسجين لكيلا يختنقوا .

ابحثوا ايها السادة في اخاديد القمر واوكاره ومغاوره لعلكم تجدون فيها مياهاً وهواء وزراعة وازهاراً وحشرات وحيوانات قمرية صغيرة . والا فابحثوا فيه عن الراديوم والاورانيوم .

نسأل الله ان يعيدكم الينا سالمين لكي تخبرونا عن اخينا القمر الخبر اليقين .

القاهرة — نقولا الحداد

والعمل .

فالمؤرخ لعصور الاجيال الوسطى ، في الغرب ، يرتكز قبل كل شيء على وثائق دور المحفوظات وهي صكوك وعقود او عهود اصيلة صحيحة شرعية انما وضعت لمقتضيات الحياة العامة او الخاصة وقضاء لمستلزماتها فيما يتعلق منها بالادارة والقضاء والاعمال والترسل وهي وثائق تزخر بالمعلومات لا تحابي ولا تأخذ بالوجوه نزيهة مجردة الى اقصى حدود النزاهة والتجرد تؤيد وقائع الامور اثباتاً او نفياً ، وتعضد سلباً او ايجاباً الاحداث التي يرغب المؤرخ في تقريرها .

هذا في الغرب اما في الشرق فعلى المؤرخ الذي يتعرض للبحث في التاريخ الاسلامي، مثلاً او لبعض وجوه التاريخ في بعض البلدان الشرقية ، ان يعرف ان ليس امامه ما هو امام زميله في الغرب من ودائع المحفوظات. وهذا لا يعني قط ان الباحث الذي يعنى بتاريخ الشرق من الوجهة الاسلامية مثلاً لا يمكن ان يعتمد على شيء من هذه الاصول التي يعتمد على مثلها المؤرخ في الغرب. هنالك لعمري بعض المحفوظات الهامة في تاريخ الشرق العربي والاسلامي نذكرها فيما يلي بحسب تفاوت درجة اهميتها وخطر ودائعها.

المحفوظات العثمانية : تتضمن هذه الودائع مجموعاً هائلاً من الوثائق الرسمية على اختلاف انواعها ، تضاهي من حيث كثرتها واهميتها، اهم ودائع المحفوظات في الغرب ، وقد مر معنا في المقال السابق ، كيف ان السلطات المسؤولة في تركيا الجمهورية، آخذة بسبيل تنظيم هذه الودائع التي تعد بمئات الالوف واعداد فهارس ميسرة لها يصح الركون اليها للاستفادة على قدر واسع من كنوز هذه المحفوظات .

مجموعة المحفوظات المصرية : جاء وصفها مطولاً فيما تقدم من الكلام ، في القسم الاول من هذا البحث وهو المنشور في العدد السابق من هذه المجلة .

مجموعة من الوثائق الهامة بعضها من الرقوق ومعظمها من اوراق البردي : عثروا عليها في مصر ، وهي وثائق تتعلق بالاعمال الادارية والمالية والشرعية ، او رسائل خاصة تمت الى التاريخ الاسلامي بسبب وثيق بين القرن الثامن والحادي عشر للميلاد .

مجموعة من الودائع الهامة مصونة بحرص وعناية في دور المحفوظات في الغرب ولا سيما في البندقية وجنوى والفاتيكان وباريس وروما وبرشلونة وفلورنس وليس من يجهل علاقة هذه المدن التي كانت ردحاً طويلاً من الدهر حواضر لجمهوريات ناشطة استأثرت في الاجيال الوسطى ، بتيسير وتسيير العلاقات التجارية والاقتصادية التي شدت الشرق الى الغرب في تلك الاثناء . ومعظم هذه المصادر وثائق ديبلوماسية او تقارير القناصل والمعتمدين والممثلين الذين كانت تقيمهم تلك الجمهوريات في المدن الساحلية الواقعة شرقي حوض البحر المتوسط وثغوره الكبرى وقد اثبتنا في بحثنا الماضي اهم هذه الثغور وما يتعلق بها من ودائع المحفوظات المكنوزة بصورة علمية فنية رائعة في اهم دور المحفوظات الفرنسية في باريس .

وقد درس السيد « ادورد غارنيه » Ed. Garnier اهمية هذه المحفوظات في بحث مستفيض عنوانه :
Musée des Archives Nationales
نشرته له المجلة المعروفة Bibliothèque (de L'Ecole des chartes) وذلك في مجلدها ٤١ T. 41

نسخ مختلفة لنصوص رسمية اثبتها بعض المؤرخين العرب : وهذه النصوص كثيرة العدد الا انها قليلة التنويع تعود الى نواح محدودة من نشاط الهيئة الاجتماعية الشرقية في هذه الحقبة ، لا يطمئن المؤرخ كثيراً الى صحتها او امانتها لما بينها من الوثائق الموضوعة والمنحولة .

قيمة هذه الودائع واهميتها من الوجهة التاريخية

ليس من يرتاب قط بضخامة المحفوظات الشرقية المخزونة بكل اعتناء في بعض البلدان الشرقية (تركيا—مصر) وفي الاقطار الغربية التي نوهنا بذكرها اعلاه . وقد يشك الكثيرون من كبار الاختصاصيين مع ذلك بقيمة هذه الوثائق وامكانياتها العلمية باعتبارها اداة صالحة ووسيلة من وسائل العلم الحديث للنهوض بتاريخنا العربي والاسلامي . فالبون بين ودائع المحفوظات هنا وهنالك في الشرق والغرب شاسع والفرق عظيم من حيث التنوع والوفرة والشمول في المكان والزمان. فاذا ما اراد المؤرخ ان يضع دراسات ناهضة بتاريخ بعض الخلافة الاسلامية (العباسيين مثلاً) او لبعض الدول الاسلامية (السلجوقيين) او لبعض الاقطار التي تقع في صلب القضايا التاريخية المبحوث عنها (سوريا—العراق—ايران) ، اسقط في يد الباحث وحال دون الوصول الى ما يعنيه نقص او عجز كلي في المصادر الاصلية .

فالمحفوظات الشرقية تفتقر بمجاميعها الى هذا التنويع اذ لا يخرج مجموع ما لدينا منها عن وثائق رسمية ، مفيدة وايم

الحق للغاية اذا ما اراد الباحث ان يؤرخ لبعض الخطط الاسلاميه في **الادارة العامة** الا ان هذه **المحفوظات** نفسها تتركنا في حيرة من امرنا اذا ما رمنا خوض الموضوعات التاريخية والقضايا العامة في هذا التاريخ من جميع النواحي التي يجب ان يتدبرها المؤرخ ليأتي عمله مستجمعاً شرائط البحث العلمي . فالوثائق المتعلقة بامور مالية الدولة الاسلامية واقتصادياتها قليلة للغـاية . كذلك نفتقر الفقر كله الى تلك المصادر الخاصة المتعلقة بالاحوال الشخصية والامور الاجتماعية والمدنية والعمرانية . فالمحفوظات الباقية المتخلفة عن ادارة الوقف ، معظمها حديث العهد لا ينهض علمياً وبصورة فنية بهذه الغاية ، ولا يمكن لها بالتالي ان تسدّ العجز البادي الذي يشل حركة الباحث ويحد من جهده ويصد من عملية التقميش المتوجبة عليه . وهكذا يرى المؤرخ نفسه امام «عينيات او نماذج» من الوثائق والاصول في التاريخ الشرقي الاسلامي على التخصيص قد ينقص من دلالتها ومما يقوم فيها من حجة ودليل شيء ليس بالقليل من القوة والمتانة ، فيما لو كانت الوثائق الخاصة بموضوع ما ، اكثر عدداً واوفر واشمل .

سبب هذا النقص

قد يتساءل القارىء الكريم كما تساءل المؤرخ مما عسى ان يكون الباعث على هذه القلة في المستندات الاسلامية في الشرق وما هي الاسباب التي جعلتها قليلة التنوع ، وامر ندرتها غريب جداً ، لا سيا والكل يعرف ، في المشارق والمغارب ان المستوى العلمي والثقافي في الشرق ، طيلة الاجيال الوسطى ، كان صعيده اعلى بكثير من المستوى الذي نرى الغرب عليه اذ ذاك . فالكتابة والخط وما اليهما من دنيا القلم والانتـاج الفكري والقراءة والمطالعة والتأليف ، كل هذا كان عندنا في الشرق اكثر انتشاراً وابعد غوراً وارحب افقاً مما كان عليه الغرب اذ ذاك . ودليلنا على هذا الزعم ، هذا الوفر وهذا اليسر في متعة الفكر ، وهذا الفيض من مئات المكتبات العامة والوف خزائن الكتب الخاصة التي قامت في الممالك الاسلامية عربيها واعجميها ، وما كانت تزخر به من عيون الآثار الفكرية التي حفظت اسماءها وان لم تحفظ بقاءها فهارس الكتب القديمة امثال فهرس ابن النديم وكشف الظنون لحاجة خليفة . فما هو السر يا ترى في امر ندرة المحفوظات الاسلامية التي تتعلق بتاريخ الشرق ، وما هي الاسباب التي تجعل من هذه الناحية قسمة المؤرخ للشرق الاسلامي ضيزى بينما يرى صنوه الغربي نفسه في فيض مبسّط من المستندات والاصول ، وهما يؤرخان ، هنا وهنالك للاجيال الوسطى ؟

ولعل السبب الاكبر والباعث الوحيد على هذه القلة يقومان قبل كل شيء في طبيعة الخطط السياسية في الاسلام وفي كنه الانشاءات التي طلع بها على الجماعة ، كما يقوم بعضها في مميزات تاريخه العام .

وهكذا نرى ان خلو العهد الاسلامي من هيئات مستقلة وخلوه من نظام اقطاعي يقول بالتابعية او يعمل بها ، وخلوه من حريات يُقطعها المدن والقصبات والحواضر الكبرى ، جاعلاً منها بلديات لها شيء من الاستقلال ، وانصهار كل اولئك في بوتقة الدولة وجسمها الموحد ، فلا عجب ان لا يبقى بعد هذا ، من آثار مدنيته ، سوى محفوظات رسميـة هي اوراق الدولة واصحاب السلطان .

ثم من صفات التمدن الاسلامي وطابعه المميز ان رغبة صاحب السلطان فيه ، خليفة كان او اميراً او سلطاناً ، لا تكفي وحدها لانشاء حق . فالخليفة او الامير او السلطان مقيد في مزاولته الحكم ، بنصوص فقهية وشروط شرعية صريحة تعتمد على وحي الهي منزل هو القرآن او الحديث . فصاحب السلطان هو المنفذ او القـائم على تنفيذ احكام الشريعة . فالحق العيني او الشخصي لا يقوم اصلاً في وثيقة رسمية او في صك او في عهد يقطعه صاحب السلطان ، بل هو ما ترسمه الشريعة الاسلامية نفسها . وفي هذا ما فيه من محدد للوثائق الخاصة ، حاصر لها ، مقلل من وجودها مخفف من تنوعها .

من يتدبر تاريخ فرنسا مثلا يرى ان السلطة الشرعية قامت بلا انقطاع في شخص الملوك والاسر المالكة التي تعاقبت على الحكم ، منذ عهد الاسرة الكارولنجية حتى قيام الثورة الفرنسية الكبرى ، اي من سنة ٧٦٣—١٧٨٩ فكل هـذه الاسر المالكية التي تعاقبت على العرش الفرنسي ظهرت بمظهر الوريث الشرعي لما تقدمها من الاسر المالكة الاخرى ، وتبنت ، بالتالي ما تركته من صكوك وعقود وحقوق او شبه حقوق شرعية او رسمية كما تبنت كل مطالب عنّ لسابقتها الاستمساك به ، كما اوجبت على نفسها المحافظة على جميع الوثائق والمستندات التي تقيم حقاً او تؤيد مطلباً .

والحال لا نرى شيئاً في تاريخ التمدن الاسلامي من هذا التواصل والترابط الذي تنتظم معه عقد السلالات الملكية المتتابعة على الحكم في الغرب عامة وفي فرنسا خاصة فتعاقب الحكومات في سير المدنية الاسلامية تم على نوع من التقاطع وعدم التبني . فلم تكن السلطة الجديدة الواصلة للحكم

— البقية في الصفحة ٥٣ —

الرغيف الاسود

بقلم عفيف صوابا

من على ذلك الافق المضطرب الكالح، أطبق المساء على نفس قلقة حائقة، لا تنفكّ تخبط في صراع عنيف، تواقعها فيه هموم الحياة، وتخبط حتى لكأنها تظل تكشح بأسها صنوف الملمات، وتعالج بحلمها عوادي الزمن، وتسخر بكبريائها من عناد الايام.

ثم استقرّ الدجى وعسكر الليل فتلاشت الحركة واطّرد السكون.

فاذا الكون المعنّى، مثقل يستريح من عناء النهار، كأنه الفارس المكدود، يرتدّ ملتوياً منهوكاً، بعد حومة المعترك.

واذا الطبيعة الغارقة في لانهاية خرساء، مستلقية بعد شقة الجهاد، رازحة تتلجلج تحت وقرة الظلام، لتتهيأ وتنشط من اجل صراع جديد، خلال تلك الفترة الساهمة التي يتعانق تحت صمتها الرهيب، ملكا الموت والحياة.

في تلك الساعة المذهلة، التي تتغشاها وحشة ضارية، لايجتازها إلا وسوسة الاحلام العابرة، والاديب الفجر المقبل، تلك التي يغمرها سكون عميق، لا يقطعه سوى حشرجة الليل، وسوى ضوضاء الصباح.

ساعة الارواح والاشباح التي تحبس طي ظلمتها المادة، وينطلق وسط سكونها الفكر. قلت لنفسي وهي في غمرتها تلك مُقسّمة بين مشاقّ أمسها وآمال غدها.

تجدّ في الحيلة وتمعن في التفكير وان ذلك الا تهالك وسعي وراء رغيفها المنشود، تحت قبة هذا الفلك.

قلت لها وقد يممتها المخاوف والهواجس، وتوزّعتها المتاعب والهموم واجتاحتها موجة من القلق الشديد، حتى كاد ينقض عليها اليأس فيلتهمها التهاماً.

كل ذلك وهي تلك الجبارة المكداح، التي ضاق في وجهها مُتّسع الدنيا، واربدّ في عينيها لون الحياة، وتوارى عن آفاقها حلم مكابر عنيد، بعد ان افلتت من يديها حلقة واسعة من العمر وانطوت من امامها شقة ضيقة من الطريق.

قلت لها يا نفس اياك وهذا الرغيف، فاحذريه في لونيه:

هذا الابيض المتمرد المستعصي، الرابض على موائد القصور، الآخذ برقاب العباد الذي يطغى على المشاعر والعقول، فيسترق الامم ويستعبد الشعوب.

وذلك الاسود الكالح البغيض، والكافر العاتي، القابع في زوايا الاكواخ.

هذا الرغيف العقوق هذا الذي صافيته فجافاني واقبلت عليه التمسه فاشاح بوجهه وصدف عني هذا الذي احرز مني فوق ما أصبت منه.

لقد رأيته مطلق امري، أبحت له عصمة نفسي، وأئتمنته على ذات عنقي.

والقيت بين يديه شتى مطامحي ورصيد امانيّ، وانفقت في سبيله مدّخر شبابي ومجمل ايامي.

ولكنه تنكر لي، وتصلّف عند مشاكسة الليالي ومطاولة الاقدار.

لقد اطعمته من فلذات كبدي ورويّته من عصارة قلبي.

لقد وقفت عليه ساعدي وجناني، ورفعت اليه مداركي وعرفاني، ففرّط فيما فرّط وساوم على ما ساوم واطّرح ما استبقاه في سوقه السوداء، سلعة بخسة، ومتاعاً رخيصاً يتجر به نفر خسيس من الطامعين.

لقد احسست به طيفاً ثقيلاً، يتمثل امام عيني منذ الساعة الاولى، يوم استويت مخلوقاً يستشعر نعمة الوجود، وانساناً يتخايل على الارض.

فما ان ترعرعت وشببت فتى يكدح ويسعى في مضارب الحياة حتى الفيتني لا ازال امام ذلك الطيف الذي تجسم في حقيقة راهنة ، وتبدى في خصم عنيد ، وهنا يبدأ الصراع وتشتد الخصومة وتتواصل المعركة .

فكأنها سنة الخالق انزلتها السماء ، او كأنه ناموس الطبيعة اقرته الارض ، فتلاقينا من تحت هذه الآفاق خصمين متطاردين متطاحنين ، يشد بعضنا على بعض شداً عنيفاً ، يحاول ارهاقي ، واحاول جره واقتناصه ، اشق اليه طريقي ، فيقطعني عنها ، ثم اعود اليها فيسدها علي .

وهكذا دواليك وعلى مثل هذا النحو استمر الكفاح واضطرد الصراع . فأيانا يني بالهزيمة وايانا تكتب له الغلبة فذلك ضرب من الغيب وتلك مشيئة من السماء .

قلت لك يا نفس اياك وهذا الرغيف .

لانه لا يزال ممسكاً بي ، يحاول شد عنقي الى الارض ، واحاول رفعها الى ما فوق : الى السحاب .

لانه مولى فاجر ، وسيد جائر يعب من دم الضعفاء ، ويمتص من عظم البؤساء ، ويقتات من اكباد الحزانى ، ويترّوى من دموع المناكيد والايتام .

ان هذا الطاغية الذي اردتك ان تحذريه ثم تحذريه اما اقبل عليك بوجهه الاسود المقيت في يومك الابيض الناعم الجموح . ان هو الا صعلوك جبار ، وسفاح جزار ، وعفريت ينفخ في اعصار ، يتلوّن بالوان المعصية والحقد ، ويتنفس بانفاس الكبريت والنار .

انه عاصفة تهب في الكوخ ، وتصفر في الشارع ، وتزمجر في الحقل .

انه زلزال يطغى على الجبل ، ويكتسح السهل ، ويتقلب على الشاطىء ، فيجعل من العمران بلقعاً وسواداً ومن الحياة هشيماً وكلوحاً .

انه ثورة في التاريخ ، تتحدث بويلاتها الاجيال ، وتخشى جحيمها امم الارض .

لقد كان هذا الرغيف الاسود فيما انطوى من القرون ، احد عمال الثورة الفرنسية ، واحد ابطال الباستيل ، يوم هبّ في وجه العاهل الكبير لويس السادس عشر ، وانقضّ على عرشه فحطمه تحطيماً ليبعث من الاطلال عمراناً ، ومن الجحيم نعيماً ، ويشيد على قمة التاريخ جمهورية عادلة حرة ، ينعم في ظلالها عالم انساني فاضل .

لقد كان هذا الرغيف القائد الاسود بين القادة الحمر ، في تلك الثورة التي انقضت في وجه القيصرية الجائرة البيضاء ، وراحت تدك اركانها دكاً ، وتقوض معالمها تقويضاً .

لقد كان ربيب القصور ، ووليد الطغيان ، ورسول الحكام والملوك ، ولكنه فوق هذا كان نصير الصعاليك ، ودليل الجماهير يدك العروش ويسحق التيجان ، يهزأ بصولة الذهب ، ويستهتر باطماع السادة ويترفع عن رياش القصور .

انه :

قسطاس الحاكم وقسطاس المحكوم وعدة الظالم وسلاح المظلوم واكسير الكأس وزعاف الكأس ولقمة الموت ورغيف الحياة .

لقد حان لانسان هذا الجيل ، الرافل في عصره الذهبي ، الراتع في برجه العاجي ، يطل مستشرفاً من كوة الذرة ، يلقي بقبس من فكره على مخبآت الوجود ، فتتكشف له معمياته واسراره ، وينفذ بعلمه الى ما فوق المادة ، ووراء المنظور ، فيتحدى الاقدار والغيوب ، ويأخذ بناصية المجهول ، ويقبض على زمام الحياة هذا المخلوق الساحر العجيب .

لقد حان له ان يتفلّت من قيود المادة ، ويتحرر من عبودية الرغيف ، وينطلق من اسرة الطعام .

انه لمن العار على هذا الانسان ان توضع عبقرياته وسائر قواه قيد اسباب العيش فقط ، وتحت تصرف الرغيف فحسب ، دون ان يتسنى له متسع من الزمن ، ينصرف منه الى واجبه الاجتماعي ويتفرغ لمهمته الانسانية التي انتدب لها واستوى من اجلها انساناً وسيداً على الارض .

وهل فات هذا الانسان ان له رسالة غير رسالة الرغيف ، وعملاً غير عمل الحيوان ، رسالة انسانية ، يجب ان يؤديها للحياة بايمان وتضحية واخلاص ليفي ما لها عليه من واجب وحق . والا كان مخلوقاً عقوقاً عقيماً ، وكانت مرحلته الدنيا طريقاً داجياً مجدباً لا اثر للنور والحياة فيه .

والا تلاشى غرض الحياة الانسانية ، وانتفت الحكمة السامية من الخلق ، واضمحلت فكرة الوجود الانساني ، وانتهت به الدنيا واغراضها عند حدود المرافق الطبيعية ، وعند قاعات الطعام واصبحت الحياة الانسانية بادرة فورية ، وعملاً بديهياً مادياً ، يأتيه جهاز آلي ، تدفعه اليه الغريزة دفعاً مستمراً فيتحرك متنقلاً على قوائم الحيوان .

المحامي عفيف هيكل صوابا

حلم

في رثاء الشاعر الياس ابو شبكة

☆

حُلْمٌ يموتُ وينطوي ، وقصيدةٌ بَلَغَت مداها
ضاقت بتمتمةِ الشفاهِ ، فأطبقَتْ تلك الشفاها

ومَضَتْ شرُوداً ، في السفوحِ الخُضْرِ ، تنتظمُ السفوحا
كانتْ حروفاً ، فاستحالَتْ ، في الفضاء الرَّحبِ ، روحا

الأرزُ ، مَدَّ ظِلالَهُ في الأُفقِ ، تحتضنُ النعيّا
ويُقالُ ، انَّ الصُبحَ أَرْمأ ، مَنْ ؟ . فخطَّتْ عبقريا

الكأسُ ، أجهشَ ، في يدِ السُمَّارِ وانطَفَأَ الشرابُ
وتلفَّتَ السمَّارُ ، ما للخمرِ ؟ فابتسمَ السَّرابُ .

فيمَ ؟ أَلِلمَجْدِ البليدِ ، الميتِ ، كُنَّا او نكونُ ؟
يا جُرحُ ، قُلْ الموتِ ، دون مداكَ ، تنهارُ الظنونُ .

يا نفسُ ، كلُّ عقيدةٍ ، في الناسِ غيرَ الموتِ ضِلّة
سبحان هذا الموت ، أنَّى رُمتَهُ ، أبصرتَ ظلَّه .

مِنْ اينَ ؟-يسألني الوجودُ- واين ؟ . - امُ التيه ، ادرى
لو استطيعُ القولَ ، قاتُ ، ولو ... وغصَّتْ آهُ ، شعرا .

حمص — وصفي قرنفلي

ودعيه يا ربة الشعر

الى روح الياس ابو شبكة

☆

كفنيه بالنور عند المغيب   واتركيه للعالم المرقوب
عطريه بالزهر في مطلع الفجر   وحفيه بالندى والطيوب
واسكبي لحنك الحزين نشيداً   يحمل الروح للفضاء الرحيب
ودعيه ياربة الشعر بالشعر   وناجيه بالدعاء الرهيب

***

اخذته السماء من راحة الارض   وضمته ضمة المحبوب
شاعرٌ ارسل اللحون من القلب   فرفت الى حنايا القلوب
ملهمٌ ينهل البيان من الوحي   ويستاف من خمور الخطوب
كم قصيد له ولحن عجيب   اغرق القلب في ذهول عجيب
رددت لحنه الربى فتهادى   مستثار الايحاء بين الدروب

***

قد ذوى الشاعر الاديب وولى   فاندبيه من شاعر واديب
عبقريٌ رأى الحياة جفاء   فمضى باحثاً وراء الغيوب
صوحت كأسه المنون جزافاً   ثم القته للزمان المريب
اطبب الارواح يذوي رويداً   ثم يشكو آلامه للطبيب
ودواء الارواح غير قريب   ودواء الاجسام جدُّ قريب

***

اين لحن المساء عند الغروب   تتغناه بالنشيد الطروب
اين تلك التي نظمت هواها   في قصيد محبب مرغوب
اين (غلواء) كي تبث دعاها   من فؤاد معذب مغلول
اين (افعى الفردوس)هل ارفقتها   مثخنات الجروح بالتعذيب
اين راعي القطيع يرسل لحناً   عند قيثارك الشجي الكئيب
ماتت الاغنيات في شفة الفجر   وريعت عواني التشبيب

غزة ــ فلسطين   هارون هاشم رشيد

كلب العمدة

بقلم محمد صدقي كسبه

☆

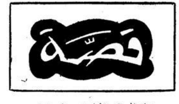
عندما تسربت خيوط الفجر البيضاء من كوة سقف الحجرة المصنوعة من الخشب المغطى بطبقة سميكة من الطين والمطلية بسائل حائل بين البياض والصفرة ... احست حميدة بالم البرد يشوي اطرافها فانطوت على نفسها في ملابسها البالية دقائق معدودة . ثم نفضت عنها حاجة جسدها المتعب الى النوم . وازاحت ما تجمع حولها من الاسمال البالية التي صنعت منها غطاء تعددت الوانه . وكزت بيدها زوجها منصور في كتفه فايقظته من نومه الذي كان قد اسلمه لحلم غريب راح يقصه عليها وهي تناوله رغيفين وقطعة من الجبن .

قال منصور لزوجه : . انني لا اعرف يا حميدة .. لماذا يلازمني كلب العمدة في صحوتي ومنامي .. ؟ لماذا يبدو لي دائماً بين المرئيات بعينيه المخيفتين وانيابه الصفراء القذرة ؟ لماذا لا تبرح صورته مخيلتي كلما جلست لأتناول اكلة بالليل او بالنهار .. ؟ انني ما ابصرته الا واحسست بالعداء المستحكم بيني وبينه . وشعرت بمرارة البغض المسموم في جنبي يطفح بها صدري مع آهة مكتومة اعبر بها عن ضيقي وتبرمي بالحياة ...

هل تعرفين يا حميدة . ان كلب العمدة ظل طول الليل ينهش في لحم كتفي بجوع ونهم ... وانه لم ينقذني من انيابه واظافره الا الجري باقدام الشياطين الى شاطىء الترعة .. ؟

ومسحت حميدة على كتف منصور بيدها العريضة . تطمئنه بالخير على ما رأى في منامه وتذكره ان اليوم قد دبت فيه انفاس النهار . وان عليه ان يسرع الخطا في سيره حتى يصل الى الحقل قبل طلوع الشمس .

ولكي يصل منصور الى الحقل كان امامه طريقان ... طريق قصير محرم عليه ان يتخطاه ... وطريق طويل محتم عليه ان يسير فيه ... وتطلع بحسرة الى القنطرة الخشبية البيضاء المطلية بالجير والتي انشأها العمدة لاستعماله فقط .. وحرم المرور فوقها على سكان الناحية .. واطال النظر فيها . وفي نظافتها .. وتأمل القرب بينها وبين الحقل . ثم مط شفته الزرقاء وهز رأسه



مهداة الى الاستاذ امين يوسف غراب

الكبيرة ذات اليمين وذات الشمال وابتدأ يسير .... كان عليه ان ينحرف على يساره ويسير بجوار ترعة ابوشنب ثلاثة كيلو مترات ثم يعبر القنطرة الخشبية التي عن يسار القرية ويسير بمحاذاة هذه الترعة نفسها على شاطئها الثاني خمسة كيلو مترات اخرى حتى يطالعه وجه — عباس افندي — خولي القرية . وكاتم سر حضرة عمدة الناحية محمود بك ابو المكارم .... وسبحت خواطر منصور في الفضاء الواسع العريض عندما خطر بباله اسم عباس افندي خولي القرية وتذكر منظره البغيض اليه . وهو يرعب الفلاحين بصوت سلسلة كلب العمدة التي لا تفارق يده حتى ولو كان الكلب نائماً في الدوار . فراح يسرع الخطا في سيره وقد امتلأت نفسه بالملل من هذه الحياة المتعبة التي لم يحس فيها يوماً من الايام بمعنى الحياة التي يعيشها سائر الناس سواه . كالعمدة والخولي وشيخ الخفر ... حتى وزكية طباخة العمدة وزوجة كاتم اسراره التي تتناولها احاديث الفلاحين خلف الحيطان في خفوت ....

كان يفكر .. لماذا هو دون هؤلاء الناس حظاً في الحياة ؟ لماذا هو اكثرهم شقاء وحرماناً في الوجود .. ؟ أليس هو

كسائر الناس في الخضوع للتبعات التي تفرض عليه... ؟ أليس هو يشتغل من طلوع الشمس حتى غروبها..؟ اذن فلماذا لا يتساوى مع النـاس في التمتع بنعيم الوجود ؟ لماذا يتضخم الفارق بينه وبين ابن العمدة جمال..؟ لماذا هو لا يتمتع بصحة كالتي تطفح على وجه صالح ابن شيخ البلد الذي لا عمل له الا التسلية بمشاهدة عراك الديوك..؟

كان اليأس قابعاً في سويداء قلبه منكمشاً بين اضلاع صدره يأبى ان يفارقه دون البؤس الذي يعيش فيه.. والذي لن يفارقه حتى يموت..

وبصق على الارض بصقة صفراء تجمعت من اركان فمه واختلطت بدماء صدره وسقطت على خنفساء كانت تدب على الارض فجعلتها تتخبط لحظات وقد اختلطت برأسها التي راحت تحركهـا في بطء ضعيف...

واحس وهو يقتلع اقدامه من الارض في اعياء مؤلم انه في الدنيـا مثل هذه الخنفساء المسكينة احس بان نعيم الناس وسعادتهم بالنسبة اليه كهذا النفاث يسقط عليه فيجعله يتخبط في ايام عمره بين الوان العذاب...

انه لا يتألم بسعادة الآخرين.... ولكنه يتألم لان الاوضاع تعطي الفقراء امثاله فقرهم وبؤسهم! حتى تحفظ بذلك للأغنياء نعيم التخمة التي يتمتعون بها..

واحست ساقاه بالتعب يلح عليه مرة ثانية ان يستريح فشد من عزمه. ورمى ببصره نحو الافق يقيس المسافة الباقية من الطريق حتى يصل الى الحقل، فالتقت عيناه بجمال ابن العمدة فوق فرسته البيضاء التي راحت تنهب به الارض كانها تركب بساط الريح.. فانفرجت شفته عن ابتسامة صفراء شاحبة، وطوى جفونه على عينيه في حسرة وتطلع الى الافق متسائلاً في حيرة يقول: كيف يا ترى تصنع الاقدار حظوظ الناس..؟

كان التعب قد نال منه منالاً كبيراً وبدأت أقدامه العارية تشكو بخطواتها القصيرة لذع الجهد والم السير. فأخذت عيناه تكتسحان الطريق وتستعرضان المسافة الباقية لكي يصل الى الحقل. وكانت نفسه مع كل هذا قد امتلأ وعاؤها بالاسى المكبوت والغيظ الخانق.. فراح يلعن الاقدار السيئة التي اهلته لان يعيش في هذه الحياة التي جاءت به في معركة ايامها السود دون ان تأخذ رأيه في المجيء....

انهم لو خيروه في المجيء الى الدنيـا على هذه الصورة التي يعيش منها في حرب ايام عمره كلها ما رضي ابداً بالمجيء... فلقد كان يفضل البقاء في عالم الغيب عن مشاهدة احداث العذاب والالم في عمره وعمر الشقاء المنكود.. بل لعله كان يشترط للخير والشر في دنياه مقياساً جديداً غير مقاييس الناس في الحياة.. ولعله كان على الاقل يشترط ايضاً في قبول مجيئه الى هذه الدنيا ان لا يعامله الناس فيها بألوان الاستعباد الوطني والتعاون الاجتماعي...

انه كان بالتأكيد.. سيذيل وثيقة قبوله بالحياة في دنيا الناس بكلمة المساواة وانفلتت منه نظرة مهمومة شاردة استقرت على القنطرة الخشبية النظيفة التي حرم عليه اجتيازها. والتي بسبب تحريم مروره عليها قطع هذا الطريق الطويل فأحس بالواقع المؤلم يصدمه في تفكيره عن الحرية والمساواة.

وطوح بيده اليمنى في غضب واخذ يجد السير في عناء نحو الحقل الذي ظهرت رؤوس اشجاره من بعيد.. ثم ما كاد يصل الى الحقل الا وقابله عباس افندي خولي القرية.. والشرر الاحمر في عينيه يكاد يشعل جسده المحموم وهو يسأله محتداً في غضب: اين تأخر الى هذا الوقت..؟ ولماذا لم يجيء كما امره ليحرس الفول مع عسران بن الشيخ محمود ؟

وانهال من فمه سيل من الشتائم القذرة صبها على رأس منصور وامه وابيه. لا ولم يكتف بهذا.. وانما امره في قسوة عنيدة ان يقتلع عوداً من نبات التيل الاخضر ويجدله على شكل كرباج.. حتى يعلمه به كيف يكون في الحقل قبل طلوع الشمس..

ورأرأت عين منصور... فهو يعرف تماماً ما يمكن ان يفعله عبـاس افندي بالفلاحين جميعاً. يعرف انه يستطيع ان يتحمل الضرب بسوط من التيل الاخضر بدل ان يطرد من عزبة محمود بك ابو المكارم ويهيم على وجهه في القرى الاخرى ويا ليته يهيم وحده. اذن لهان الامر.. ولكن زوجته حميدة.. وابنته الصغيرة سعاد.. ما ذنبها في كل هذا العذاب.. انه لمن الخير ان يضرب. حتى يستطيع ان يعيش...

وكان قد انتهى من احضار عود التيل فاعطاه لعباس افندي واسلم نفسه لعبد الجواد وسلامة الذين شدا وثاقه بايديهم الخشنة ومكنـا الكرباج من جسده المنهوك...

كان منصور اثناء الضرب يئن ويصرخ وهو يعرف انه لا عاصم له من قسوة عباس افندي الا كلل ساعده وعدم قدرته على

الضرب . . . وكان يعرف ان الشارب واللحية الذين اضفيا عليه رجولة ومهابة لا ينسجمان ابداً مع البكاء . . ولذا فقد زمّ المسكين شفته ثم اطبق عليها باسنانه وقام الى عمله يحجل من الم الضرب . .

واخذت الشمس تعلو في الافق . .

وانتصف النهار . . وراحت معدة منصور تتلوى في بطنه من الجوع فقد انسته افكار الطريق المهمومة السوداء . والضرب المبرح الذي تلقاه على جسده البالي ان يتناول الرغيفين وقطعة الجبن . . فأخذ يبحث عن منديله المحلاوي الذي صره على الرغيفين وقطعة الجبن ليتناول اكلة الصبح والظهر معاً كي يستمد منها عوناً على شقاء بقية النهار . . .

بيد انه عبثاً حاول البحث . . اذ هو لا يذكر مع اهوال هذا اليوم البغيض اين وضع المنديل . . .

وطما الضيق على صدره . واستبد به الغيظ . . وارتفع صدره مع انفاس الغضب من نفسه ومن دنياه . فعاد ادراجه الى العمل يدفن بخس ايامه في الكد والشقاء الشقاء الذي كتب على امثاله ان يتألموا من الظلم به . وان يتسلوا به على الظلم ايضاً . . .

وهاض جناح سخطه الذي ضاقت به سماء افكاره الضيقة . وتخطت عيونه العاشية شجيرات القطن الخضراء وهو عائد الى مكانه من الحقل . فاذا به يبصر (بنمر) كلب العمدة نائماً بجوار شمسية عباس افندي عند رأس خط القطن الاول وبين قدميه منديل الاكل وقطعة الجبن والرغيفين الاسودين ممزقين دون ان يمس منها شيئاً كأنما هو قد عاف اكلها .

وضاق صدر منصور بالالم المكبوت للفارق بين حياته وحياة الكلب . فانفجر غيظه . وبرز الريفي الكامن في اطواء نفسه . واسرع نحو الكلب في وحشية مجنونة واطبق بكلتا يديه على فأسه في هم طافح وانحط بها على رأس الكلب دفعة واحدة . ثم افاق لنفسه وقد فارق الكلب الحياة . . .

افاق لنفسه . . وهاله شبح الجريمة . جريمة الاعتداء على هذا السيد . . فارتعشت اوصاله . . وتخيل هول القصاص الذي سيتزل به . والجزاء الذي ستكون روحه هو ثمناً له . . وتصور كيف سيعاقبه العمدة عندما يعرف انه هو الذي قتل كلبه العزيز . . وابصر بآلة الاتهام الدافعة الى الجريمة . . واتسعت حدقتا عينيه وارتعشت اهدابه فمد انامله الوجلة في خوف محموم واخذ المنديل ثم عاد متلصصاً الى عمله منكباً على فأسه يعزق الارض في رهبة مهمومة بينما انفاسه المبهورة ترفع نظراته المرتعبة الى عرض الطريق وجلة خائفة تنتظر اكتشاف احد الفلاحين جريمة القتل .

وانصرم نهار منصور ، الذي حمل في اطوائه هذه المتاعب . . انصرم بطيئاً في الم قاس مرير . . انصرم في تلكؤ لئيم كما تمر السكين الباردة على عنق الحيوان المهزول انصرم وعاد منصور مع غروب شمسه بهذا الاحساس الى المنزل وهو يستعيد همومه مرة ثانية يزنها مع فضيلة الصبر في ميزان حكم الريف القانعة الشاكرة على كل الوان الهموم . . .

كانت اقدامه المتعبة تطوي الطريق في الم يئن . وكان جسده المعتل في صراع قاتل مع انفاسه التي اخذ يتلقفها في صعوبة شديدة . فلقد تعاون الجوع والخوف والمرض على هلاكه . واشترك في اثارة كل هذه الاعداء الثلاثة ذلك التفكير الذي لازمه طول هذا النهار . .

واستند الى جميزة عجوز جثت على شاطىء ترعة ابو شنب . وقد مدت ساقها تغتسل في الماء العكر . . واندفعت يده الى جيب ردائه القذر فانسابت اصابعه الهزيلة تبحث فيها لحظات واخرج نصف لفافة كان قد ادخرها من امسه . وعلقها بين شفتيه الجافتين ثم اشعل لها فتيلة القطن التي استمد نارها من احتكاك قطعة حجر بأخرى من الحديد . . .

ومع انفاس اللفافة القصيرة . راح يستعرض حياته امام عيونه الواهنة التي لم تشبع نوماً ولم ترحها رقدة شمس البارحة لقد مرت عليه عشرون عاماً وهو يشتغل اجيراً عند عمدة القرية محمود بك ابو المكارم . . عشرون عاماً لم يذق خلالها طعم الراحة التي يتمتع بها غيره من عباد الله . . . لا ولم يرتد فيها جلباباً كهذا الذي يرتديه صراف الناحية المحظوظ . . عشرون عاماً لم تلمس يده فيها ورقة من ذات الخمسة جنيهات كالتي تلعب بامثالها انامل ابن العمدة في نزق طائش . .

وتجمعت على صدره متاعب العشرين عاماً الماضية . واحس بالشقاء يزحف على قلبه فرمي بعقب اللفافة التي اوشكت نهايتها ان تحترق مع اصابعه . وراح مرة ثانية يمسح عن ايامه صدأ الحوادث الغابرة التي عاصرها . وقد بدأ قلبه الطافح بالحيرة ينزف الحسرة المرة والالم الصارخ . فتذكر اهوال ايام الحرمان التي عايش عمرها في عمره . . تذكر كيف حال فقر اسرته دون اتمام تعليمه في كتاب الشيخ راضي فقيه القرية . وكيف جندوه في جمع دودة القطن لقاء القروش الثلاثة التي كان يتسلمها والده

يومياً من المعلم حسن ابو الذهب المقاول .
وتذكر ايام مرضه بحمى الملاريا . الايام التي كان ملازمه فيها مبغوضاً من القرية كلها بعد موت اخوته الثلاثة بهـذا المرض اللعين . وتذكر كيف ماتت امه بعد ان تركت له اباً مريضاً قعيد الدار اثقل كاهله بتبعات مرض الروماتزم . وتبعات ثمن كمية الدخـان والشاي التي كان يستهلكها كل يوم . . وتذكر كيف حال العمدة بينه وبين خطيبته الاولى صبـاح بنت الشيخ راضي فقيه القرية لان جمال ابن العمدة اصر على ان يأخذها معه لتخدمه في القاهرة . . وكيف انهم احضروهـا له بعد شهرين وطلبوا منه ليلة حضورهـا بالذات ان يتزوجها في نفس الليلة . وكيف انه احس في الامر شيئاً ولم يستطع معه ان يمانع . مع انه عرف كل شيء . . . . عرف انه سيكون كبش الفداء لشباب ابن العمدة المحروس . .

وتذكر كيف ان القدر تدخل في آخر لحظة وانقذه من المهزلة فهربت صباح من الفرح والقت بنفسها في النيل . .

تذكر منصور كل هذا . . وانهلت من عينه دمعة ساخنة صـامتة ارعشت حبات قلبه وهزت كيانه كله . وجعلته كلمـا امتد الطريق امامـه ازدادت ثورة قلبه واحس باعصـابه تصطرع مع ضعف جسده المنهوك . .

كان يرفع قدماً ويضع اخرى . وعيونه العاشية معلقة بنهاية ما يبصر من الطريق الممتد امامه في التواء قليل انتبه معه الى الشمس التي كانت تتوارى عند منتهى الافق وهي تسحب على الكون غلالة حمراء قانية . راح هو الآخر يتطلع اليها في هدوء راعش حزين وقد بدأت نفسه ترمق هذا المنظر في صمت واجف مهزول .

كانت ضربات قلبه تزداد سرعة وعنفاً مع انفاسه المتدهورة وحمى حرارة رأسه التي تكاد تنفجر . . وكان يحس بامعائه تكاد تثب هي الاخرى من فمه مع الجوع والالم . . ثم دارت الدنيا امـام عينيه . ولم يعد يرى منها غير حلقـات سوداء كانت تتسع شيئاً فشيئاً حتى غيرت بسوادها جوانب الكون الكئيب . . .

وتراءت لعينيه غمائم سوداء تلفعت برداء من الضباب وحجبت عنه معـالم القرية . . فلم يعد يرى منها غير اشباح باهتة واقترب من القنطرة التي حرم عليه اجتيازها وارتفع نشيج صدره يعلن السخط المغيظ في الم بالغ . واحس بتفاهة الدنيا امام نظره . وحدثته نفسه ان كل شر يحدث له لن يزيد ابداً على ما هو فيه من مهانة وان اكبر مصيبة تقع على رأسه التي حطمتها المذلة لن تؤلمه او تعذبه . . وانما ستريحه من الحياة . . .

وخطا في عزم اليأس وشجاعته يجتاز القنطرة فأحس بالارض تغور تحت اقدامه المتعبة وبالوهن يدب في اعضـاء جسده المنهوك . . وتشبثت يده بحافتها في غضبة هزيلة عجفاء . وهو يخطو فوقها في بطء ممل مميت . . كأنما عزّ عليه ان لا يمر على هذه القنطرة الملعونة ويمرغ كبرياء العمدة في تراب اقدامه فوقها . . او كأنما احب ان يذل طغيان العمدة في انفه عنـاوين عجرفته وغطرسته التي ذاق منها المر والهوان والتي كانت تنزف الاسى والحسرة من قلبه كل صبح ومساء . فراح يجر ساقه المتعبة ويدفع جسده المحموم . ثم احس برأسه تدور واعصابه تصطرع مع احتماله في الم بالغ وتمثلت لـه مع غشاوة عينيه صورة (نمر) كلب العمدة وهو يعدو قادماً نحوه في سرعة مخيفة بينما الشرر الاحمر يتطاير من عينيه البشعتين فسقط مغشياً عليه عند منتصف القنطرة كومة واحدة اثخنتها العبودية والمتاعب والامراض . .

مسكين منصور . .

لقد ابتسم لاول مرة في حياته . . وهو يردد انفاسه الاخيرة . . متطلعاً الى السماء وهو يقول . . . الحمدلله . . .

دمنهور — محمد صدقي كبه

من الادب البرازيلي المعاصر

نشيد

لغليرمي دي ألميدا

Guilherme de Almeida

ما أجملك يا بلادي !
أيها الغريب ، انظر هذه النخلة الخلّابة
كأنها عمود .. مستقيم !
يعلوه طاووس اخضر
ذو ذنبٍ مفوّش مزركش
الصمت ! أيها العابر
في الظل المستدير ..
على التربة الحارة
يوجد هنالك شاعر ! ..

☆



انشودة حلمي التائه

لمونتي دل بيكيا

Menotti Del Picchia

أنا النفس الحائرة التائهة ..
أهيم في العالم ، حالماً بالغرائب
فلا استقرار ولا هدوء
ناشداً ابداً حلمي الزائل
انني صنوُ الأجنحة ، والشراعات
والدفّات ، والغيوم ، والنسيم !
انا كل شيء قلق !
مويجة الغدير المنشدة
دخان المتطاير بشكله اللولبي من المواقد ..
وبي حيرة شجرات النارجيل
الرشيقة المرتفعة !
انا الثلم الفضي الذي يتركه جؤجؤ المركب
على مرآة الانهر ...
أنا النفس الحائرة التائهة ..
حلمي ينشد القبلة الهاربة
والمجد الرفيع والباطل معاً
انا الشراع الفينيقي في عرض البحر
الشراع البعيد ...
وأحس بسرور غريب
في كل ما يمضي ... ويسرع .. ويهرب ! ..

ترجمة رياض المعلوف



بقلم الدكتور نقولا فياض

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

أبنت في مقالي السابق كيف ان الانسان لا يزال عبداً على الارض على الرغم من رقيّه، وما اخترعه في سبيل حريته وسعادته : عبداً لغيره بما تفرضه عليه عادات الاجتماع وتقاليده ، وما تبعث فيه هذه العادات والتقاليد من حب التشبه والطمع والاستسلام للشهوات . وعبداً لنفسه بخضوعه لاهواء مزاجه واستعداده وكسله الفطري . وان هذه الحالة هي التي تعلل لنا انحصار رقيّه في العلوم دون الاخلاق والآداب . وقلت ان سلاسل هذه العبودية التي يرسف فيها لا يمكن ان تُحطَّم الا اذا اراد هو تحطيمها . ولا يكفي ان يريد بل عليه ان يجعل ارادته قوية قادرة على هذا العمل الضخم .

لقد كتب الناس كثيراً عن الارادة وتعريفها ومزاياها ، وامامي كتاب قيم للدكتور « ماردن » ترجمة الامير يوسف ابي اللمع ، وفيه بيان مسهب عن قوة الارادة وعملها في الرجال العظام ، وتأثيرها في الاجسام والعلل ، والسلم والحرب الى آخر ما هنالك فلا احاول ولوج هذا الباب بل ادعوك ايها القارىء الى بحث جديد يكون تكملة لما قيل وكتب في هذا الموضوع .

لقد شبهت الارادة بمخل ارخميدوس القائل : « اعطوني نقطة ارتكاز استند اليها فأرفع العالم » وقلت ان هذه النقطة التي يجب ان تستند اليها الارادة لتحرك القوى الهائلة وتزحزح الاثقال الباهظة هي صخرة التربية .

رب معترض يقول واي جديد في هذا ؟ فالتربية ليست بنت اليوم ، وقد كتب فيها مجلدات وتوفر على درسها رجال معروفون ولم تصل بنا الى الغاية المنشودة ، فكيف يمكنها ان تعمل في الحاضر ما قصرت عنه في الماضي ؟

على رسلك ايها المعترض . نعم ليس العهد بالتربية جديداً ، ولكنها كانت ابداً تلاقي حرباً فلا تستطيع ان تعطي ثمارهـا . واذا اردت ان تعرف من هو هذا العدو الذي يحاربها قلت : انا وانت . المعلم والاب والرفيق ، فقد اعتاد الآباء والاساتذة وكل ذي رئاسة او سلطة ان يغضبوا عندما يسمعون ولداً دون العاشرة يتلفظ بهذه الكلمة « اريد » . ان هذه الكلمة التي تخرج من فم التلميذ تحمل اليهم باظهارها ذاتية قائلها بوادر ثورة لم يتعودوها وهذا ما يخيفهم فيجتهدون بكل ما لديهم من الوسائل في تحطيم هذه الذاتية .

ولا سبيل للولد في المدرسة ان ينال العلامة الحسنة ، او يكون حائزاً على رضى معلميه ووالديه الا اذا كان مثال الطاعة والخنوع يسير بارادة سواه دون ان يرتفع له صوت بالتذمر او الشكوى .

بماذا يحلم الآباء اليوم ؟ أبأن يكون ابنهم نشيطاً واسع الحركة يملأ الجو بضحكه وصيحاته الدالة على ما فيه من الحياة تنبعث اشعتها من نظراته وتتقد في اسارير وجهه ؟ كلا . فاذا قال « اريد » انتهروه ، واذا لعب بالتراب عاقبوه ، واذا اكثر من الحركة والكلام قالوا نزق طائش لم تنزل عليه ملائكة السكينة والهدوء . هم ينظرون اليه كما ينظرون الى انفسهم ، ويطلبون منه ان يكون على شاكلتهم ، ناسين بعد المسافة بينهم وبينه في السن والشعور والفكر والاميال .

ما اعظم الفرق بين هذا الولد مثلاً وتلك الفئة من التلامذة المتأنقين في ملابسهم يخشون عليها من التراب اذا لعبوا ، المصففين شعورهم يخافون عبث الهواء بها اذا ركضوا ، اللامعي البشرة يحاذرون تعريضها لاشعة الشمس اذا مشوا ، المشبهين الملائكة في سكونهم وحيائهم واطراق الرأس وطرف العين . هؤلاء خلقوا للمستقبل . . اخلاق رضية وطباع هادئة فيشهد المعلم انهم مثال التلاميذ ، والآباء

انهم مثال البنين . لقد نظموا حياتهم كما ارادوها لهم من اكل وشرب ونوم وقعود وقيام وغير ذلك حتى فيما يختص بالمهنة التي تنتظرهم بعد نزولهم الى ميدان العالم .

ثم يأتي الدرس فيحشون دماغهم بما لا فائدة منه غير تضييع الوقت وتبذير القوى ، ضاربين صفحاً عن استعدادهم الذاتي ، وميلهم الفطري ، وقابليتهم لهذا العلم او لذاك .

الحقّ الحقّ ان من كان مثل هؤلاء فهو لا يحيا حياته الخاصة ولكن ابويه يعيشان فيه ، وما هذا بالمثال الذي نريده للتلامذة والبنين ، والذي سيكون فيما بعد مثالاً للوالدين .

واذا كان عقل الولد صفحة بيضاء كما يقولون فليس من العدل ان ينقشوا فيه ما يريدونه هم بل عليهم ان يراعوا استعداده وميله فيساعدوا فيه الحسن على النمو او يحاربوا ما يخشى ان تكون الوراثة المرضية قد حملته اياه .

يجب محاربة هذه العقيدة الراسخة في الاذهان من ان للآباء حقوقاً على اولادهم تبيح لهم مطلق التصرف في تربيتهم . فالولد ليس ملكاً لاحد، لا لابويه ولا للدولة هو ملك نفسه في الاول وله حقوق لا يجوز اغفالها ، له حق الحياة والنماء بحريته وحدها دون ان يوضع في القيد بدنه او عقله . يجب ان يحترم فيه مستقبل الانسانية فلا يحني عنقه يوماً تحت نير العادات المسيطرة على من حوله .

وحماية حقوق الولد تبدأ قبل المدرسة وقبل البيت بل قبل ان يولد ، وذلك بحماية الام فكل امرأة تحمل في احشائها جرثومة حياة فهي مقدسة وعلى المجتمع واجبات نحوها بأن تضمن لها شروط الحياة الصحية كي لا يكون للوراثة المرضية سبيل الى التأثير فيه وفي ارادته .

ليست التربية بالقراءة والكتابة والحساب كما انه ليس الملعقة والسكين والشوكة هي التي تؤلف الطعام . والمبادىء في الكتب مهما تكن جميلة لا تكفي لتجعل الانسان قادراً على احتمال مصاعب الجهاد في هذا الوجود ، والابتسامة على شفتيه ، وكل ما يعمل في هذا السبيل يظل ناقصاً ان لم يرافقه اتجاه الانظار الى الارادة منذ الصغر ، وهنا يصطدم المربي بعقاب كثيرة لانه كما يضطر الى مسايرة هذه الارادة يضطر احياناً الى محاربتها لان في الاميال الخلقية ما هو مناقض للحياة المنتظمة الصحيحة القوية . وهذا ما يدلك على خطورة المهمة الملقاة على عاتق من يتولى تربية الاطفال وصغار التلامذة . ان هذا الدور من العمر يتطلب عناية خاصة تفوق كل عناية . والمعلم الذي يعهد اليه مثل هذا العمل يجب ان يكون من ارقى الناس علماً واوسعهم خبرة واصفاهم خلقاً لان صف القراءة اهم من صف الفلسفة بما يقتضيه من الحكمة والمراقبة الدقيقة والصبر الجميل حتى يكون اساساً متيناً لبناء المستقبل .

ولكن ماذا نرى اليوم ؟ انهم يقيسون مقدرة المعلم الى حاجة الطالب من العلم . وبما ان هذه الحاجة ضيقة النطاق ، لا تتطلب في الصغر جهداً كبيراً ومعارف واسعة فهم يكتفون بالقاء مقاليد التعليم الى اناس لم يعركهم الدهر ، وقد يكونون على جانب عظيم من الذكاء والاجتهاد والصبر الا ان خبرة الايام تنقصهم ، وخبرة الايام وحدها تفتح للمربي الطريق الى قلب الولد وعقله لتفهم حقيقة مزاجه واستعداده واخلاقه فيقوّم ما تأود منها ويساعد ميله الفطري وقابليته لشتى العلوم .

ربما كانت التربية فيما مضى كافية الى درجة ما ، اما اليوم فالانسانية تمشي بخطى الجبابرة في طريق الارتقاء الادبي والمادي والعقلي والاجتماعي . والعالم القديم كما عرفناه بشرائعه وافكاره وعقائده قد انزل رجله في القبر ، وقام فوقه عالم آخر له غير تلك الشرائع والاحكام ، وصار الانسان اكثر شراً من ذي قبل ، واتخذ تنازع البقاء شكلاً وحشياً يدوس به الاخ اخاه بلا رحمة ، واصبح الواحد منا اشد طلباً لحقوقه او ما يحسبه من حقوقه ، واوعى اهمالاً لواجباته ، وبات الصديق لا يؤمن لصديقه ، والخادم لا يخلص لمخدومه ، وكل ما كان في الماضي يخلع على الحياة بهجتها صار اثراً بعد عين .

كل هذا يجعل حاجة الانسان الى سلاح الارادة اعظم مما

كانت في اي زمن سبق، ويدفع المسؤولين عنها الى توسيع نطاق التربية الاولى وتبديل بعض اساليبها وتوجيهها نحو الغاية القصوى وهي التخلص من شتى العبوديات التي تنتظر اولادنا . لان الانسان ليس عقلا فحسب بل هو ايضاً ارادة واخلاق .

لماذا تتقدم علوم الانسان واخلاقه باقية على ما هي، او بعبارة اوضح لماذا لا يزال الشقاء مخيماً على الناس على الرغم من كثرة الاختراعات التي جعلته غنياً في اشياء كثيرة وسهلت له مصاعب الحياة ؟ ذلك لان عبوديته لكل ما حوله تمنعه من الاستفادة كما يجب من هذا الرقي فهو يتعلم الشيء ويعمل بعكس ما يتعلم ، وهذا التناقض بين ما يعلم وما يتعلم ظاهر في كل مناحي الحياة فالانسانية اليوم تشبه أولئك المتعبدين الذين يحلمون بنعيم الآخرة ولا ترى في اعمالهم غير ما يقودهم الى الجحيم . كلنا مثلا يحب الصحة والحياة ويتمنى ان تطول ايامه على الارض ، ويعمل مع ذلك على تقصير اجله وجعل الحياة ثقيلة الوطأة عليه . وهذا الجسم الدقيق البناء الجامع في تركيبه بين الرقة والمناعة ، الذي يفوق كل آلات الحركة اتقاناً وثباتاً ، لانراعي في استعماله ما تعلمناه من شروط الصحة والنظام . ولو عاملنا اضخم الآلات المعدة لحمل الاثقال او جرها بمثل ما يعامل به هذا الجسم لما استطاعت الثبات زمناً طويلا وتصدعت وتفجرت بتأثير الضغط عليها ، وجسمنا يتحمل من الاجهاد والسهر والسموم والهموم مما يفوق في ثقله محمول تلك الآلات على ضخامتها .

نهتم بما حولنا فنربي الحيوان والنبات على الطرق العلمية وننجح في تبديل الاخلاق وتحسين الصفات وخلق انواع جديدة وتربية الطفل تربية صحية لا تزال ناقصة ويكاد لا يحصى عدد الذين يموتون في الطفولة الاولى او يشوهون من جراء هذا الاهمال .

نحن لا نعرف ان نأكل ونشرب ونتنفس وننام ، ولا نعرف طريق الراحة ولا طريق العمل . وعلى الرغم من هذا الجهل ومن عدم المبالاة فالنبتة البشرية تنمو وتتلمس الحياة بدافع طبيعي . وهذا الجسم على ما يعتوره من العلل والمصائب يكافح بقوته الطبيعية ويلبس لكل حال لبوسها فيصل الى التعمير سبعين وثمانين عاماً في حين انك لا تجد بين ما اخترعه الانسان آلة تستطيع الخدمة طوال هذا الدهر دون ان يطرأ عليها خلل يبطل معه العمل .

كلنا يعرف ان هناك شرائع تعاقب السارق والقاتل ، ولا يمضي يوم دون ان يكون فيه سرقة وقتل .

نتعلم ان بقاء الانسب شرعة الجهاد في هذا الوجود ولا نتعجب مثلاً اذا رأينا فتاة غنية تعرض عن شاب جميل قوي لتبدل به ضعيفاً ذميماً لا مزية له الا الغنى مثلها .

نتعلم ونرى نتائج الاعمال الشاذة كالادمان على الخمر والقمار والاسراف ولا نتجنب الوقوع في اشراكها .

مكتوب على ابواب السنما والترام وملاعب التمثيل وغيرها البصاق ممنوع فنقرأ هذا ونفهمه ولا نعمل به .

نذكر الخير ونعترف بالاحسان وننادي به في كل مكان ، واذا سعى الواحد منا الى استدرار المعونة لمحتاج كان كالمتسول الشحاذ .

كل هذا التناقض كما قلت لاننا لا نزال عبيداً . واذا كان من الصعب علينا نحن الكبار ان نتخلص من هذه العبودية لضعف في ارادتنا سجلته علينا الايام والعادة فلنغتنم حال الطفل وهو طري كالشمعة ولنلقنه آيات الحرية لتدريب خطواته في الطريق السوي .

في خرافات الاقدمين ان اشيل بطل الاغريق المشهور في حصار تروادة ، تولى تربيته وهو طفل ساحر من الجان فكان يقوده الى الغيران والكهوف والمهاوي ليعوده العطش والجوع والتعب . ويلقيه بين السباع والدببة والنمور يرويه من دمها ويغذيه من مخاخ عظامها حتى اذا بلغ اشده اخذ بتلقينه الموسيقى والطب والهندسة وحمل السلاح . فنحن لا نطلب من المربي ان يأخذ اولادنا الى مغاور الوحوش ، ويكون دليله الجني في هذه الحياة المحفوفة بالاخطار وجل ما نريد ان تترك له تلك الذاتية التي تختلج بين جنبيه ، ولا تخنق بالمعارضة والاضطهاد ومحاولة تسييره لا كما تطلب طبيعته بل كما يطلب الآخرون . نريد الاهتمام بتقويتها ليكون الانسان فيما بعد قيماً على نفسه وقيماً على الزمان .

اذا قمنا بهذا العمل بجرأة واخلاص وصبر وتضحية فقد عبّدنا للجيل الآتي طريق الحرية الادبية ، وكان من وراء ذلك اصلاح المجتمع ورخاء الانسانية .

نقولا فياض

عن رابندرانات طاغور

العقود

ترجمة الاب يوحنا قمير
استاذ الفلسفة العربية في جامعة القديس يوسف

كان يرسم صوراً للآلهة والآلهات، وكان يبيعها في قصر الملك، ويعيش من ريعها .

لم يكن، في المدينة، من يعرف تاريخ حياته، وكانوا يحسبون فنه هذا مهنة موروثة .

وكان يفكر في نفسه قائلاً :

« كنت في مصر غنياً، وانا اليوم فقير، لكنا انا بذاك مسرور . لقد اتيح لي ان اقف متأملاً امام صورة الآلهة ، وان اكسب قوتي بفضلها . واني اؤدي هكذا رسالتي، فادخل رسمها الى كل بيت، وما من يستطيع ان يحرمني هذا الشرف . »

ومات الوزير الاول في البلاد ، فأتوا له بخلف من مكان بعيد ، وكانت في المدينة ملاهٍ وافراح . لكن واحداً لم يأتِ عملاً ذاك اليوم ، هو ذلك الرسام . انزوى في بيته واخذ يفكر :

« هذا الوزير الجديد ولد لقيط . لقد ضمه ابي طفلاً ، وعُني بتربيته ، واصبح يثق به اكثر مما يثق بي ، انا ابنه . واتخذ العقوق من هذه الثقة سلاحاً ، وسلب شيخاً نجاه كل ما كان له » .

وكان مشغل الرسام هيكل الله نفسه، فجثا امام مذبحه متمتماً :

« اللهم ، لقد كرّمت صورتك، يوماً بعد يوم ، وقد تأملت بامعان كل ملامح وجهك ، وكل دقائقه . أبهذه الاهانة تكافئني على سني عبادتي ؟ أيصبح الوزير الاول يتيم نهبني، واعاني انا منظر هذا الظلم ؟»

واتى عيد العربات ، وتقاطر الناس من كل نواحي الهند .

وتزاحم الناس حول الرسام، يريدون شراء صوره . وكان بين الجمع صبي بهي، عليه ملامح الامراء . في جيده عقد ماس، وفي اذنيه قرطان ثمينان، وفي معصمه سوار مرصّع بالحجارة الكريمة . وكان خمسة عبيد يرافقونه ، وقد تقلدوا سيوفاً .

واختار الصبي صورة وقال :

« اريد ان اشتري هذه الصورة » .

وسأل الرسام عن الصبي ، فاجابه احد العبيد : « انه ابن وزيرنا الجديد ، ابنه الوحيد » .

حينئذ القى الرسام ستاراً على الصورة وقال : « لا اريد ان ابيعها » .

وزاد هذا الرفض في رغبة الصبي، فعاد الى البيت ، وانزوى لا يلعب، ولا يأكل ايضاً .

وارسل الوزير للرسام كيساً ملآن ذهباً ، ولكن الرسام اعاد له كيسه .

حينئذ ذهب الوزير بنفسه اليه ، وقال له :

« اريد ان اشتري هذا الرسم، فما ثمنه ؟ » .

واجاب الرسام :

« لن ابيعه ابداً ! » .

وعاد الوزير يتلظى من الغيظ .

وكانت اضطهادات شتى ، ولكن الرسام لم يلن . ما من صورة تزين جدرانه سوى تلك الصورة الممنوعة ، وكان ينظر اليها ، ويصر بين اسنانه :

« هذه الصورة ؛ انها لنصري ! » .

وكان الفنان يرسم ، كل فجر، صورة اله داره . وكان ذاك كل عبادته له . وانتبه يوماً ، في الصورة، الى شيء لم يرق له : رأى في ملامح الاله تغيراً طفيفاً ازعج ذوقه الفني . وتساءل ما سبب هذا التغير المزعج الطارىء . ولكنه لم يجد على ذلك جواباً .

وتمادى النقص ، واصبح التغير في الصورة يتضح يوماً بعد يوم ، واذا الرسام ينتبه يوماً من تأمله ، وينتصب فجأة هاتفاً :

« لقد فهمت الآن ! » .

انه يرى الآن مرأى اليقين ان عيني الله تشبهان عيني الوزير ، وان تموج شفتيه يشبه تجعد فم الوزير . وكانت هيئة الاله تقترب يوماً بعد يوم من هيئة الوزير .

حينئذ طرح الرسام ريشته هاتفاً :

« هو الوزير ينتصر ، على الرغم مني ! »

ودخل احد خدام الملك، وامر الرسام بمغادرة بيته .

— ولماذا ؟

— لان الوزير قرر ان يبني على انقاضه هيكلا لالهه هو .

فقال الفنان :

« ليستولِ الوزير على بيتي، وكل مالي ولكنه لن يدخل هيكلا شيد في قلبي ! »

وفي ذاك المساء ، ذهب الرسام الى الوزير . فسأله هذا باسماً :

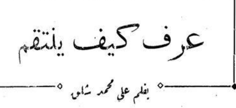
— لمَ اتيتَ الى هنا ؟

— اتيتُ ابيعك صورة تشتهيها .

— وكم ثمنها ؟ — قطعة ذهب واحدة .

وامر الوزير احد خدامه، فاتى للفنان بكيس فيه مئة قطعة من الذهب .

لكن الفنان اختار قطعة واحدة، وانصرف والوزير لم يفهم سلوك هذا الرجل .



كنت اسعد الناس بالبرغوث الصغير او «الزلطة» الذي كنت اتناوله من والدي كل صباح لاقابل به «العم علي» فيضع في جيبي شيئاً من الترمس او الكستنا او الذرة ذات العرانيس الشهية :

العم علي، شيخ في الستين من عمره يقوم بدكانه المتنقل قبالة دارنا في باب الجابية وهو دكان يتطور مع الزمن بل مع الفصول والمواسم، تارة يعرض فيه الفاكهة الشتوية واحياناً بفول الربيع، واخرى عنب الصيف وتينه وصبيره، ذلك انه كان يراعي الظروف ويلبس لكل حالة لبوسها :

تلك حالي مع العم علي لا تتبدل، منذ ان كنت اسعى الى الكتّاب حتى تخرجت من الجامعة، صبحته بالبشالك والمتاليك، كما اصبحه الآن بالفرنكات ولا يزال عنبه وتينه هو اياه وجلسته الوقور الراسخة مسنداً ظهره الى شجرة « الزنزلخت » القائمة على رصيف الشارع هي اياها، الا ان سحابة غامضة تغبّر في وجهه، زادته غضوناً على السنين وهي لم تنقشع في وقت ما .

لقد كان العم علي بحالته تلك ضرورياً لحي قديم كباب الجابية، شيئاً يتمم لوناً خاصاً في ذلك الجو الثابت على الزمن كتلك القناطر البيزنطية، او الواجهات العربية لابواب المساجد والحمامات، بل ربما كان العم علي اخصب منها حياة، واعمق كوناً، وارحب ايحاء .

كثيراً ما كنت افزع اليه باسراري « ومقالبي » وشؤوني المتنوعة فيبصرني بمستقبلي واضعاً عيني على المستقبل .

والآن .. لا يزال صورته المبحوح المتهدج يتموج في سمعي كلما ذكرته، كأنه حار طري الى جانبي، ونظراته الغائمة المنداحة الى الافق تجرفني معها بهدوء، و« أغبانيته » الجعدة على طربوشه التونسي المتقادم، اكاد اتحسس بعيني الساعة خيوطها بعد غياب سبع سنوات .

وذانك الشاربان المتهدلان بوقار على فم ارتكزت اطباقته بشدة من الصمت الملازم .

على ان صدارته المزركشة، وهي التي بقيت وحدها تدل على آثار نعمة عفّى عليها الزمن، تشير بوضوح الى سراويل الرجل الخلق الذي كأنه بقايا خرائب طامسة، تشير الى عمود اثري مموّه بالرونق ممرور بالفن .

انهمرت عليه ذات يوم لهفان حيران لأخبره عن تلك الجريمة النكراء التي اقدم عليها اب وعم لفتاة عذراء في محلة «القدم» ودفناها .

كنت اتوقع من العم علي ان تجحظ عيناه، وينفغر فمه دهشة وتقززاً، غير انه بقي مسمراً مكانه، ويده تضغط على « نبريش » نرجيلته « يبقبق » بها كأنه يأبى ان يرتسم انفعال نفسه على وجهه وحركاته، فهو يجريه من فمه الى الماء، يبثه ويودعه ما يصطرع في نفسه من انفعالات .



حسبته لم يسمعني، او انه يستبعد حصول ذلك بيد انه تنحنح بجفوة ثم امسك الملقط وناسب بين الجمرات الوامضات على تنباكه، ثم سحب بنبريشه سحبة عميقة فانطلق على اثرها موج من الدخان كثيف اتبعه بآخر، وقفاه بثالث، ثم نظر الي وقد تجهمت اسارير وجهه قائلاً .

هنالك حوادث كثيرة تروعك كهذه وقد صرت لكثرة ما جربت وسمعت لا اكترث ولا اتبدل، انظر الى هذا الاعمى الذي يتحسس الجدار ما ادراك بحجره ؟ انه مأساة تعيش بيننا في كل يوم، بينا تلك التي ذكرت كالعارض العابر .

التفت فاذا انا برجل اقرب الى الطول منه الى القصر مطموس المقلتين، مشوه الوجه يردّد : يا مُريد !! يا رحيم !!!

وهو يتلمّس طريقه في متابعة الحائط ولم احط بما قصد اليه العم علي تماماً، الى ان اردف قائلاً .

اسمع يابني ما اقصه عليك ففيه عبرة وذكرى . المنزل الذي استأجره خالك عبد الحسيب بك في القنوات منذ عام، كانت تسكنه اسرة تتألف من زوج وزوجة وابنة واحدة هي معولهما في هذه الحياة، حبتها الطبيعة بكل مقومات الانثى، ومغريات الجنس، سكن قبالتهم فتى في ميعة شبابه مع اب وام .

من المنتظر ان تتلاقى نظرات الفتى والفتاة، بل من الطبيعي ان يجتمعا في غفلة الرقباء، حدث ذلك واكثر منه، فان الفتاة اصبحت تشعر انسياباً في طريق الامومة .

كاشفته بما تخفي موقنة انه لا شك مسرع الى طلب يدها من ابيها قبل ان

ينكشف امرهما ، وقياماً بما عليه الوفاء وصوت الضمير .

رانها لهزة بالغة مداها البعيد ان تصدم الفتاة بسخرية « لاذعة » ممن احبت ، فلم تجد اسلوباً من اساليب التحقير والسباب يتناسب مع حقارة هذا النذل الخـداع، فقابلته بصمت اعمق من الموت ، وارهب من الليل ومضت في انكسار ودموع .

— مالك يا بنية ؟!!! شحوب شامل وانحراف عنا، منكمشة في حجرتك لا يأنس بك الشباك كعادتك او تمتد يدك لتحريك الفونوغراف، كأن اسطوانات الشيخ امين حسنين، واحمد الفقش لم تعد تروقك .

— ماما، اناشقية، اناحقيرة، دعيني امت

ارتاعت امها لهذه الكلمات، وايقنت ان في الامر سوءاً وقد دار في خلدها انه لا بد من واقعة بينها وبين ابن الجيران، وهل يخفى على الانثى شيء من متعلقات الجنس ؟

ها هي ظهيرة المعاولي، تحمل اجزاءها مهدودة مذعورة الى دار الفتى مبينة له فداحة الامر ان هو اصر على رفضه وان عليه وهو شاب ان يحفظ شرفه وشرف اسرة تجد في ذل الفضيحة الموت المحتوم، وبدلا من ان يلين قلبه، او يتنبه ضميره، خاطبها ببرود قائلا : ان ابنتك لعلها متصلة بغيري، من يدرينا ... ؟ ربما كانت هذه طريقها ... !!!

يا للهول ! ! كانت تحمل هماً واحداً، فاثقلت كاهلها دنيا من الهموم وافظع ما تمنى به ان يقف زوجها على جلية الامر .

قد يصاب المرء فيتصور الهلاك قريباً قريباً ، غير ان باباً من الخلاص يتراءى له، بيد انه خلاص كالهلاك او شبيه به .

انها امرأة، ربما لم تواتها قوة اقناع هذا الفتى الاثيم، فلتخبر زوجها مهما كلف الامر، ذلك الزوج الانوف الشريف، انها مدفوعة الى تعريفه بالواقع بعامل الامانة، والاستعانة على وعسى ....

ارأيت الى القائد البطل ترده اخبار انسحاق جيشه وانهيار عظمته ، فيرضخ للقدر المحتم، ويمشي صاغراً يجر وراءه الخزي والخذلان ليوقع صك الانكسار امام عدوه عساه يعود بشيء من فم الاسد ؟

تلك حال الاب في طريقه يستعطف فتى لا يعرف من هو ، رغم انه تبين من زوجته ان الفتى خداع نذل، وليس اصعب على الحر من ان يتسفل بحاجة امام عبيد التراب .

— يا بني، انك شاب، والشباب شرف ومروءة، وحفاظ، فهلا عملت بما عليه عليك شبابك من ستر اسرة لم يلبسها العار قبلا، واضعا امام عينيك امر الله والضمير والانسانية ؟

— غريب غريب يا رجـل ، كيف تخاطبني بهذه اللهجة كمن يثق انني صاحب الفعلة، ام هو اسلوبكم لتلصقوا بناتكم بأبناء الاسر العريقة ؟

— من أنتم ؟ وما شأنكم ، ان الساعة التي نتعرف بها اليكم لم تحن بعد .

— أقصر ايها الساقط الاثيم، فوالله ان علياً النابلسي لأكبر من ان يغمس قدمه في بطنك فيبقره، واعلم ان انتقامي سيكون اقسى مما تتصور .

— ها ها يا بطل ، يا لك من جبار ، اذهب وفتش على مصلحة ...

عاد علي النابلسي الى منزله، وكانت امرأته تنتظره على لهيب طاغ وكأنها كانت تتوقع خذلان زوجها ، اما الفتاة فانها أليفة حجرتها ودموعها وعارها .

فتح ابوها باب حجرتها وناولها ارغفة من الخبز وجبنا وحلاوة قائلا بهدوء : يا بنية انني ذاهب مع والدتك الى «دوما» نزور عمتك ام سميح، حيث نعود في المساء، وهذا ما تبلغين به الى ان نحضر ومعنا الوزة التي وعدتنا بها عمتك .

ما كادت الام تدخل حجرة المطبخ بعد عودتها من دوما مع زوجها حتى رأت ابنتها صريعة على الارض لا حراك بها ، حاولت ان تصيح ولكن الاب اسكتها ليستدعي الطبيب الذي قرر انها ماتت بالجبن المسموم الملوث .

كرت الايام تباعاً ، وكادت تسدل على هذه الحادثة ستار النسيان الا ان علياً النابلسي لا يزال مزمعاً على الثأر والانتقام .

ترصد الفتى شهوراً بل سنين، فعرف انه يألف خمارة منزوية في باب توما ، وانه يمر كل يوم عند الساعة الواحدة بعد انتصاف الليل قرب كنيسة الروم قاصداً منزله ، فأعد زجاجة ملأها بماء الفضة ، واخفى في جيبه خنجراً حاداً ، وارتدى ملاءة عجوز ليقبع في ظـل قنطرة الكنيسة منتظراً مرور غريمه معولا على ان يكون انتقامه من نوع الجرم .

وما ان رآه مقبلا يتمايل من تعتعة السكر حتى أكب على الارض كمن يبحث عن شيء اضاعه ، وعندما حاذاه الفتى سأله متوسلا ان يا بني سقط مني ما جمعته هذا المساء من احسان المحسنين فهل تتكرم بمساعدتي لالتقاطه .

انحنى الفتى مستجيباً ليساعد العجوز بلم نقودها ، فاذا بدفقات من ماء الفضة تطمس عينيه وخنجر حاد يعمل في ناحية من جسده اصابته بسوئها .

مضى على هذه الحادثة عشرون عاماً يا بني ، وعمك علي يتشفى بالنظر الصامت الى هذا الاعمى الاثيم الذي دللتك عليه، متخذاً من نرجيلته عكازاً في طريق الهموم ...

درعا — علي محمد شلبي

وحي الليل

لاحمد ابو سعد

جوبا

انت يا ليل انت للشعر مغنى لبس الحلم واحتوى الفيء ردنا
وتمطى على الجفون فمال الزهو نجماً والحب كأساً ودنا
وتثنيت ملهماً ، فكأن الشوق غصن بقده يتثنى
لهفتا للغرام ! يونق ظلًا والهوى يكسب التهاويل فنا
والصبا المستهام يهتف ، والعشاق سكرى والقلب سام معنّى
والدنى سكرة الشعاع بجفنينا ، وذهل على يدينا اطمأنا

***

انت يا ليل انت فيض من السحر واحلام شاعر يتغنى
ما تغشيتني بصمتك الا هتف الوجد في ضلوعي وجنا
وتمثلتني اضمك حتى لكأني اذوب فيك وافنى
وتعيني فاستحيل ظلالا منك مسحورة وابعث لحنا
وارود النيام انفض عيناً بن طيوف الكرى وافتح اذنا
فكأني اشق للروح دربا في ظلال الرؤى واخلف كونا
ارقي ملعب الطيوف ونفسي زورق فوق رقصة الموج يبنى
وانا زهوة الضفاف من الحلم تندى سحراً وتنضح لونا
كلما راقص الشعاع جبيني وكساني من التلهب معنى

***

حلم الشاعر انطلاق وتهويم ودنيا من الخيال ومغنى
حلم رف في الجنون فماج السحر واخضوضر السنى وافتنا
واتى الغيد في الكرى يهر الحسن لحاظاً ويسكب الضوء جفنا
ويعري من التلهف حسناء ويطوي على الصبابة حسنا
فكأني بالليل همهم ملتاعاً وقلب الظلام رق وحنا
وكأن السماء حامت على الافق وباتت نجومها تتدنى
وكأني في ذروة الليل محمول اناجي غيباً واخطب جنا !!
ملهم سامر الغيوب وعاطاها غراماً في صدره مرجحناً
وسقى الارض من جناها امانيّ تلالا حبا وتورق غصنا
يا له الملهم انبثاقاً من الغيب وقلباً من الوداعة مضنى
غني الخلق بالمناصب والمال له الله وهو بالوهم يغنى
ثروة الملهم الطبيعة والحسن واحلامه الرياض الغنا
وله المنصب المتوج في الافق خلوداً وجانب الى الله ادنى
وله النجم والسماء وما للناس ؟ للناس ممالكات تفنى

من اعماق الوجدان

دعوه .. انه في جنته

*

بقلم
شكري فيصل
القاهرة

دعوه
لا تحاولوا ان توقظوه .. فما هو بالنائم ، ولكنما أخذته سنة من الهوى .. والهوى حلم رفيع فلا تفسدوا عليه هذه الاحلام التي يستمتع بها، وهذه الدنى التي يرنو اليها ، وهذا العالم الذي ينسجه من حبات قلبه .. دعوه .. فانه هيمان باعدت التقادير بينه وبين الارض التي أحبها، والوطن الذي نشأ فيه، والدنيا التي أقبل عليها، والحديقة الكبرى «دمشق» التي استروح فيها العطر، ونشق منها السحر، وعرف فيها النور .. دعوه لا تفسدوا عليه يقظته او نومه . فهو نائم كاليقظان، ويقظان كالنائم . انه يعيش في نشوة الحنين: حنين الى ماضيه القريب وذكرياته الماضية، والى هذه الاجواء الكريمة التي حاكها من هدب عينيه .. فلما آن له ان يستمتع بها انصرف عنها وابتعد منها ، فاذا هو غريب وحيد ...

دعوه
لا تخافوا ان تمتد اليه النار ، فما يحس أذى النار .. لان من جوى قلبه لهبها، ومن توهج كبده توهجها، ومن يقظة ضميره يقظتها حين تزكو وتشتد .. فيها مثل الذي فيه .. ضرام وغرام .. انه في النار ولكنها برد وسلام ... فقد شق على النار ان تؤذيه فأشفقت عليه .. وآلمها ان تجرحه فعصت طبيعتها فيه .. فاذا هو وهي صديقان لا يفترقان : يعيش من فوقها ، ويتلوى على لهبها ، وينام على جمرها ، ويتوسد لظاها .. واذا هي تعيش في قلبه ، وتتراقص ألسنتها في نبضاته ، وينساب لونها في دمه ، ويعيش بريقها في عينيه ، ويخبو عزمها في نومه ، ويشتد في يقظته .. واذا هما معاً لهب ونور ..

دعوه
لا تقولوا أين هو . فهو يدري اين هو . انه في قبلته من الوطن ، وفي محرابه من دمشق ، وفي هيكله من هذه المدينة التي علمته الطهر اذ علمته الحب ، وسكبت فيه براءة الطفولة حين غرست فيه شدة الرجل ، وألقت عليه أثواب العفة حين سمت به الى سن الفتوة .. انه هناك قريب كالبعيد ، وبعيد كالقريب .. يحس كل شيء من حوله ، ويعرف كل ما قبله ، ويدرك التافه والجليل حتى اذا مد بصره ليرى غاب عنه الطيف ، او أرهف اذنه ليسمع ضاع منه الصدى ، او مد يده ليصافح صافحته النسائم ، فندت من كفه الملتهبة ، واذنه المرهفة ، وبصره الراني .. انه هناك فلا تساءلوا اين هو ، لانه يعرف اين تسري به الروح ، وأين تسرب به المشاعر .. انه يدرك معارج الهوى ومسالك العاطفة وانه ليؤمن انها طرق امينة مشرقة فلا تخافوا عليه منها لانه نقي الصفحة ، بريء الهوى حيي الشعور .

ودعوه
تسألون عنه لا تقولوا مـاذا يفعل .. فهو قد لا يفعل شيئاً له أثره عند الناس وخطره في المجتمع .. ولكنه في قرارة نفسه ، نفسه هذه التي لم تعرف الا الخير ، يؤمن بأنه يعمل كل شيء له اثره وخطره .. انه يصهر روحه في هذا الاتون الالهي ، ويمر بها من فوق هذه النار المقدسة : نار المواجد .. انه ينضج رجولته في لهبها .. وعلى نور هذا اللهب يقرأ العالم كله فاذا هو يتبدى له عن حقائق رائعة واذا هو يتكشف له عن مفاهيم جديدة واذا هو في نظره كلٌّ موحد ، انعدمت فيه الفوارق ، ونسيت فيه الفواصل ، واضحى نغماً خالداً ، او رنة ناعمة ، او صوتاً من اصوات الملائكة ... هذا العالم كله عنده صفاء من عينيها ، وبراءة من طبعها ، وغنة من رنينها الحنون .. وهو

من اجل ذلك لا يؤسفه ان تتصرم الايام وان تمر الليالي فلا يجد الناس.. مه ماتعودوا ان يجدوه .. انه في عالم من المثل رفيع ، وفي جو من المواجد .. انه يسمو على جناحين من حب عميق . عميق .

دعوه لا تحسبوا انكم توقظونه ، فهذا الضجيج من حوله يؤذيه وهذه الاصوات تؤلمه .. انها تفسد عليه عزلته ، وتربك وحدته ، وتحول بينه وبين هذا التحليق السامي .. انها تقطع عليه انغام الملائكة ، ومفاتن الحور ، ومشاهد الخلد .. انه يوشك ان يدخل جنته فلا تلفحوا طريق جنته بلهب من سعير الدنيا ، ولا تضعوا في سبيلها الناعم اشواك هذه الطرق المؤذية .. انه مع الحياة الخالدة على موعد قريب .. ومهما يطل امد هذا الموعد فسوف يحين ومهما يمتد فسوف يكون ، ومهما تحل بينه وبينه الحوائل فستتقطع هذه الحوائل .. انه مع هذه الحياة الخالدة ، معها ، على موعد قريب قريب ، فلا تسخروا الزمن لحربه فالزمن ، معه ، والله يرعاه ..

دعوه وحين تمرون به ذات صباح او ذات مساء فتمهلوا .. حيوه ان حييتموه هادئين وادعين فقد كره الضجة ، وعاف الصخب ، ومالت نفسه عن هذه الحياة الى حياة اخرى سمت به اليها .. لا الكلام يجذبه ، ولا الصوت يطربه ، ولا الحديث يأسره ويغلبه .. ان له اليوم لغة جديدة بدأ يعلمها ، وحديثاً بدأ يُلقنه ، وكلاماً غير هذا الكلام .. انها لغة تبدأ في القلب وتنتهي في القلب ، وحديث ترف فيه الاعين وتخفق له الضلوع وكلام يحنو له الكبد وتستأسر له النفس .. انها لغة الاشواق فلا تفسدوا صفاءها بالهجنة ، ولا نقاءها باللكنة ، ولا عذوبتها بالرطانة العمياء .

دعوه لا تحاولوا ايقاظه ، فقد فتح عينيه على عالمه الجديد فاذا الناس كلهم من خلفه نيام ، واذا هو وحده يقظ كل اليقظة ، متنبه أشد التنبه . لا تفسدوا عليه قناعته ، فقناعته بعض ايمانه ، وتصديقه بعض يقينه ، ودنياه التي يحيا خير عنده من عالم الناس .. انه لا يشهد هنا ، في دنيا المواجد ، ختل الناس ولا خداعهم ، ولا يحس نفاقهم ورياءهم ، ولا يلقى مكرهم وسهامهم . انه هنا لا يحسده الحاسدون اذا مضى ، ولا يكيد له الكائدون اذا تقدم ، ولا يجملقون فيه ان احسن او اساء .. ففي هذه الدنيا الطاهرة الهينة يخلع الناس جلودهم الكثيفة ، ويستبدلون نفوساً أرق وأسمى ، وأحلى وأصفى .. انها دنيا نضرة لا تدخلها الا الاشجار النقية الخضراء .. اما الاشواك الحاسدة ، واما الاوراق الذابلة الصفر فسرعان ما تتساقط على ابوابها .

دعوه انه يصلي فما هو بالغافل .. انه ينشد نشيد الروح ويصغي الى قرارة النفس ، ويحلق في السماوات العلى .. انه يكتب في هذه اللحظات صفحات جديدة من عمره : لا يكتبها بلغة القوم التي عرفها ، ولا أساليبهم التي ألفها ، ولا نماذجهم التي مرنها .. وانما هي اسلوب فريد متوهج في ثناياه نور ، وفي جوفه نار ، وانما هي احرف براقة فيها صفاء النفوس الخيّرة ، ووهج المشاعر الملتهبة ، وصقال القلوب التي افاض عليها الهوى سناه .. انه يكتب لا يملي بنفسه لنفسه ، وانما يحس يداً ناعمة نعومة النسيم ، ملساء ملاسة الحد الصقيل ، تأخذ بيده فتديرها كيف تشاء ، وسرعان ما يرضخ لها ، وينساق معها ويجد في هذا الرضوخ وهذا الانسياق راحة الروح ، وبرد الطمأنينة .. انه يمضي فيكتب ، لا يدري كيف ، ولا اين ، ولا لمن .. حسبه هذه اليد التي تعلو يده ، وهذا الطيف الذي يجالس طيفه .. حسبه هذا الاستغراق فلا تضنوا به عليه .

دعوه ايها الاصدقاء .. لا يحملكم القلق ان توقظوه فما اعتاد ان ينام ، انه يقظ .. ، ولا تخشوا عليه هذا اللهب ، انه لهب مقدس .. برد وسلام .. لا تقولوا اين هو .. مروا به حين تمرون متمهلين ، وسلموا حين تسلمون وادعين .. انه في جنته . جنة من سعة السماء ، ورحمة الله ، ونشيد الملائكة ، وجوار الاحبة المقتربين .. انه في عالم الحقيقة ، لا يعيش على الاشباح التي لا تروي ظمأ ، ولا تنقع غلة .. انه في وضح النهار ، فلا تنقلوه الى ظلمة الكهف .

دعوه دعوا هذه الشعلة تتوقد فاذا رأيتموها ترتجف فلا تظنوا بها خفوتاً .. انها ترقص رقصة الحياة الخصبة الغنية .. انها ترتجف لتمد ألسنتها ، وتنشر أشعتها ، وتستعلي بضوئها .. لا يغرنكم ان لا تروا لها الزيت والفتيل فما هي من نور الارض ولكنها من نور السماء .. دعوها ايها الاصدقاء ، والله يرعاه .. الله يعلم اين امره ان يدع قلبه .. اما هي .. اما هي فقد خشي عليها القلق فكتمها هذا الحديث .. ترى هل تقرؤه ساعة من ليل أو ساعة من نهار ؟! .

القاهرة — شكري فيصل

أثر البيئة في الشعر الجاهلي

☆

بقلم حسن باشو

صبرا

أ

البيئة نوعان: عامة، وخاصة. وكل منهما ينقسم في الوقت نفسه الى قسمين: طبيعي، واجتماعي.

فالبيئة الطبيعية العامة هي كل ما يميز البلاد من جبال ووديان، وانهار وبحار، وسهول خصبة او صحارى مجدبة، وهواء بارد او حار فان كانت الارض سهلة او جبلية، خصبة او جدباء، ظهر اثرها في طبائع الافراد من لين او شدة، وكرم او بخل، مثلما نرى في سكان الساحل من هدوء ووداعة في حين ان سكان الجبل اقرب الى الخشونة والصلابة.

وان كان الهواء حاراً او بارداً، بان اثره في مزاج السكان من ميل الى الكسل او النشاط، كما يتضح اثر ذلك في سكان افريقية الحارة، فهم، بفعل الحرارة، اميل الى الخمول الجسمي والعقلي معاً، بينما سكان اوروبة وخاصة المناطق المعتدلة منها، يزخرون بالحياة والنشاط في الناحيتين العقلية والجسمية.

والبيئة الاجتماعية العامة هي ما يسود تلك البلاد من نظم وقوانين، وعقائد واديان، واصطلاحات وعادات.

فان كانت تلك النظم شديدة او متراخية، ظهر اثرها في تصرف الافراد من محافظة على النظام او اخلال بالامن وهكذا.

والبيئة الطبيعية الخاصة هي الوسط، او المحيط الضيق، الذي يعيش فيه الفرد.

والبيئة الاجتماعية الخاصة هي الاهل الذين يعايشهم.

وقد يتضح اثر ذلك في الفرد من الكلام اعلاه عن اثر البيئة العامة في المجموع.

البيئة العامة بنوعيها، الطبيعي والاجتماعي، تؤثر في سكان البلاد، فتكسبهم ميزة خاصة يمتازون بها عن سائر الشعوب. وهذه الميزة هي ما يسمونه (بالعقلية). ومن هنا كان لكل شعب عقلية خاصة، تجمع بين افراده، وتفرقهم عن غيرهم من افراد بقية الشعوب.

والبيئة الخاصة من شأنها ان تؤثر في حياة الفرد.

لكن ذلك الاثر يختلف باختلاف ما عند الافراد من قوة التأثر او ضعفها. والناس في هذه القوة درجات. منهم من لا يتأثر بشيء مما حوله، فهو ضعيف الاحساس والشعور. ومنهم من لا يتأثر الا بمقدار لا يتجاوز نفسه، وهذا هو الرجل العادي. ومنهم من يتأثر بكل ما يجري حوله، فيصفه، ويصف ما يشعر به نحوه، ويصف تأثيره في الناس وهذا هو الاديب.

والادباء قسمان : قسم يعبر عن شعوره بالاسـلوب النثري ، سواء كان خطابة ام كتابة . وقسم يعبر باسلوب منظوم ، على نحو معين ، اصطلح الناس ان يسموه شعراً ، وهذا هو في عرفنـا الشاعر .

البيئة لا تخلق الاديب ، وانما تتيح له الفرصة للظهور والطبيعة وحدها هي التي تخلق الاديب ، وتخلق فيه الاستعـداد للتأثر بانفعالات البيئة ، حتى لكأنه مرآة تعكس كل ما في تلك البيئة من صور جميلة او قبيحة .

ويهمنا في هذه العجالة ، ان نصف البيئة العربية العامة ، لنرى مبلغ ما كان لها من التأثير في تكوين العقلية او الخاصية التي يمتاز بها الشاعر العربي عن غيره من الشعراء في بقية الامم ، حتى نطق بما نعرفه له من الشعر .

ثم نذكر شيئاً عن البيئة الخاصة لبعض نماذج من الشعراء لنستعرض بعد ذلك اثر تلك البيئة في شعر كل واحد منهم .

والشاعر العربي الذي نعنيه هنـا ، هو الشاعر الذي نشأ في (الجزيرة العربية) وترعرع تحت سمائها ، وجاب صحراءهـا واختبر عاداتها ، قبل ان يخرج به الاسلام الى غيرها من البيئات الجديدة .

البيئة العربية العامة

البلاد العربية اقليم واسع الارجاء ، تبلغ مساحته ربع اوروبا تقريباً . يقع في الجنوب الغربي من آسيا ، وقد تسامح الاقدمون فسموه (جزيرة العرب) مع ان الميـاه لا تحيط به من جميع الجهات .

في الغرب من هذا الاقليم قطران مهمان : الاول في الشمال يدعى الحجاز . وهو قطر فقير قاحل ، فيه كثير من الاودية ، تمتلىء بالسيل غب المطر ، وتصب في البحر . واغلب سكانه بدو رحل ، يعتمدون على الآبار الشحيحة المنثورة هنا وهناك . ومناخه في بعض بلاده معتدل كالطائف ، وفيما عدا ذلك ، فهو حـار شديد الحرارة . والثاني هو اليمن ، ويقع في الجنوب من الحجاز ، وقد عرف قديماً بالحضارة والخصب والغنى ، وكان له علاقـات بالهند والشرق الادنى .

اما القسم الاعظم من هذا الاقليم الواسع فهو صحراء قاحلة ، فرشت ارضها برمال تصهرها الشمس ، وتلعب بها الرياح العاتية فتجعل منها كثباناً ووهاداً . وقد تجود عليها السماء بقطرات من الماء ، فينبت في بعض بقاعها نبات صحراوي ، ليس فيه غناء ، ويقصد اليه البدو بشائهم ورحلهم ونسائهم ، حتى اذا جف الزرع ، عادوا الى مواطنهم .

وجانب من هذه الصحراء مغطى بالحجارة النخرة السود ، كأنها احرقت بالنار ، وقذفت بها البراكين ، وانتشرت هنـا وهناك ، حتى جاورت المدينة نفسها ، وهي تدعى (الحرّات) .

وربما انتشرت ، في بعض جوانب الصحراء ، غابات قليـلة واشجار ونخيل . وهي تؤلف حينئذ ما يسمونه بالواحات .

تأثير البيئة العربية

هذه البيئة الطبيعية القاسية ، من صحراء قاحلة ، وهواء حار ، ومناظر متشابهة في الارض والسماء هي التي اثرت على العقلية العربية ، بما فيها من عادات واخلاق ، فحددتها تحديداً خاصاً ظهر اثره فيما نظم الشعراء .

انها هي التي فرضت على العرب نظام القبائل بالنظر لتبعثر المياه في آبار شحيحة هنا وهناك ، فهي لا تكفي الا لعدد قليل من البشر ، حتى اذا نضبت ، اضطروا ان يرحلوا عنها بحثاً وراء ماء آخر . ونستطيع ان نقول مثل ذلك في المراعي .

لهذا كانت الحياة قبلية غير مستقرة ، وربما كان هذا سبباً من اسباب عدم استقرار القصائد الجاهلية على موضوع واحـد بعينه ، فهي تجمع عدة موضوعات ، ليس بينها ، اكثر الاحيان ، رابطة تسلسلية واضحة ، وان وجدت الرابطة المعنوية في بعض الاحيان .

هذه الحياة بما تتطلبه من التنقلات الفجائية ، والاسفار السريعة احوجت الاعرابي الى التغني في الطريق لتسلية نفسه وناقته ، ومن هنا كان ميله الاول الى الشعر الغنائي ، الذي يطغى على اكثر فنونه الشعرية ، ان لم يكن عليها جميعها .

وهي ايضاً ، بما تعرضه من العناصر الطبيعية المكشوفة ، جعلته واقعياً في وصفه ، ينتزع صوره الادبية من الاشياء التي تقع عليها عيناه ، ولهذا كان دقيقاً في وصفه ، وهو في الوقت نفسـه عظيم التأثر ، لانه انما يعرض في ذلك الوصف الحقيقة الخالصـة بالوان زاهية من الادب .

قال امرؤ القيس في معلقته يصف بعر الظباء :

ترى بعر الأرآم في عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفـل

وهي التي قصرت مجال خيالهم ، بمشاهدها المتشابهة ، حتى جعلتهم لا ينظرون الى الاشياء نظرة عامة شاملة ، تطيف بالحياة والوجود .

وهي التي قطعتهم عن العالم المتحضر حولهم ، بالنظر لصعوبة اجتيازها ، حتى حسبوا انفسهم انهم وحدهم في العالم ، فاعتقدوا بتفوق عنصرهم ، وامتياز دمهم .

وهي ، بما تتطلب من شدة اليقظة في البحث عن المياه والكلأ وشدة الحذر خوفاً من الضياع في المفاوز ، او الوقوع في شباك الوحوش والسباع ، جعلتهم مرهفي الاحساس . ومرهف الاحساس لا بد ان يكون ، عصبي المزاج ، سريع الغضب ، يهيج للشيء التافه ، ثم لا يقف في هياجه عند حد .

والمزاج العصبي يستتبع عادة ذكاء وقدرة على التفنن .

واضطرار الاعرابي الى قطع القفار الموحشة ، جعله يعتاد الخشونة في العيش ، فلا يطلب من الزاد الا النذر اليسير . لذلك كان غذاؤه يتألف من ابسط الاشياء عنده واقربها اليه . فهو يكتفي بقليل من البان الابل ولحمها ، وهي ترافقه في الحل والترحال ، ويتحلى بحبات من التمر وهو كثير في الصحراء .

ولا يستطيع ان يرافقه في تلك الاسفار البعيدة الشاقة غير حيوان واحد ، يصبر معه على الجوع والعطش ، والتعب . وقد دعاه سفينة الصحراء ، تكرمة له . وبلغ من حبه له وعطفه عليه ان اعتنى به بالتسمية والوصف اكثر من جميع بقية اجناس الحيوان .

والصحراء ، بمفاوزها البعيدة ، تلقي الرعب في نفس الفرد ، وتجعله ينسى شخصيته المستقلة ليتحدث دائماً عن قبيلته التي يعتز بها ، فيتغنى بما لها من فضل وما قامت به من اعمال .

وهي لصعوبة التنقل فيها ، لم يكن من السهل انتشار القراءة والكتابة بين اهلها . لذلك كان جل اعتماد البدوي على الذاكرة في حفظ العلوم والآداب المعروفة في بيئته ، والاعتماد على الذاكرة استلزم حفظ الخطرات والافكار في اقصر ما يمكن من الاشعار والحكم والامثال . وربما كان هذا سبباً من اسباب عدم وجود الملاحم في الشعر العربي ، لانها تتطلب شرحاً وافياً وقصائد طويلة .

ثم ان ذلك الجو الرتيب الحزين في الصحراء ، من شأنه ان يبعث في النفس الكآبة ، فتميل الى الحزن ، ولا تستعذب غير الانغام الحزينة المتشابهة ، سواء في البكاء ، ام في الغناء .

والصحراء ، بفقرها وبؤسها ، جعلت الاعرابي يقدر قيمة الطعام بأكثر ما تستحق ، حتى اسبغ على الكرم حلة قشيبة من البهاء ، وعده في مقدمة الفضائل .

وهي لقلة الماء والزاد فيها ، جعلت السكان يتناحرون على هاتين المادتين حفظاً للبقاء ، وذلك بالغزوات والحروب . وهذا يستلزم الحث على الشجاعة والتغني بالصبر على الشدائد ، لانه لا يفوز بالغنائم الا من كان اكثر جرأة واعظم صبراً .

وتقضي تلك الحروب القبلية ، او الغزوات ، بان تنزح القبيلة الضعيفة عن مكانها ، تاركة لبيوتها اثراً لا يزول . حتى اذا مر به الشاعر ، وكان له باحدى فتيات الحي سابقة من حب او غرام ، وقف يتذكر ايامه الحلوة ، ثم تنسكب عيناه دموعاً ويسيل قلبه شعراً ، وذلك لقلة اتصاله بالنساء اللواتي كان عليهن رقابة شديدة .

ثم ان جو تلك البيئة الفسيحة جعل الاعراب يعشقون الحرية التي لم يكن يحدها حد ، وعنوا بها الحرية الشخصية لا الاجتماعية فهم لا يدينون بالطاعة لرئيس ولا لحاكم . تاريخهم في الجاهلية — حتى وفي الاسلام — سلسلة من الحروب الداخلية .

نستنتج مما تقدم ان البيئة العربية حتمت على ساكنها ان يكون :

خاضعاً للحياة القبلية	(الفخر)
جزئي الخيال	(قلة الفنون الشعرية التي طرقها)
معتزاً بجنسه ، مفتخراً بدمه	(الفخر)
مرهف الاحساس ، عصبي المزاج	(الفخر والهجاء)
حاد الذكاء ، فصيحاً في تقليب المعنى الواحد بتعابير مختلفة	(وصف آثار الديار)
معتاداً على الخشونة في حياته ومعيشته	(الفخر)
معتمداً على الجمل ، معتنياً به كل الاعتناء	(وصف الناقة)
مفنياً شخصيته في سبيل قبيلته	(الفخر)
معتمداً على الذاكرة	(اعتناؤه بالشعر)
اميل الى الحزن منه الى السرور	(الزهد والرثاء)
مبالغاً في تقدير قيمة الكرم	(المدح)
شجاعاً ، صبوراً في الحوادث	(المدح والفخر)
قوي العاطفة ، رقيق الشعور	(الغزل والرثاء)
محباً للحرية	(الفخر)

وقد ظهر اثر ذلك في جميع الفنون الشعرية التي طرقها الشاعر العربي في الصحراء .

فنون الشعر الجاهلي

وعلى هذا الاساس نرى ان الشعر الجاهلي لا يخرج بجملته عن الموضوعات الرئيسية التالية :

الوصف (آثار الديار ، وغيرها) ، الغزل او وصف الحبيب ،

وصف الناقة او وصف الفرس ، المدح ، الهجاء ، الفخر ، الرثاء .

امثلة من الشعر الجاهلي

١ – وصف آثار الديار

من دمن و اطلال ، وتكاد لا تخلو منه معلقة . قال امرؤ القيس :

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومَلِ
فتوضح فالمقراة لم يعفُ رسمها   لما نسجتها من جنوب وشمأل
ترى بعر الارآم في عرصاتها   وقيعانها كأنه حب فلفل

وقال طرفة بن العبد :

لخولة اطلالٌ بِبُرْقَةِ ثهمدِ   تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وقوفاً بها صحبي علي مَطِيَّهم   يقولون لا تهلك اسىً وتجلد

وهكذا الامر عند زهير ولبيد وعنترة ولم يشذ الا عمرو بن كلثوم الذي ابتدأ معلقته بوصف الخمر ، والحارث بن حلزة الذي ابتدأها بالغزل وذكر الفراق .

فجميع هذه الاوصاف تدور حول معنى واحد ، هو القول بان الديار اقفرت من سكانها ، ولكن آثار أولئك السكان لم تذهب .

وقد استمد الشاعر صوره الحسية من صميم البيئة الصحراوية التي يعيش فيها . فتشبيهه البعر بحب الفلفل ، واثر الديار بما يبقى من الوشم في اليد ، او ببقايا الكتابة على الاحجار ، كل ذلك قد رآه الشاعر في الصحراء .

وقد تعاور الجميع على هذا المعنى الواحد وعلى تلك التشابيه ، حتى كادوا كلهم يستعملون كلمات وتعابير واحدة (تلوح كباقي الوشم ، كأنها مراجيع وشم ، – وقوفاً بها صحبي على مطيهم (امرؤ القيس وطرفة) امن ام اوفى دمنة ، يا دار عبلة – ماذا تحيبون من نؤي واحجار ، ما بكاء الكبير بالاطلال الخ . . .)

وهذا احد براهين تثبت ان الصحراء اثرت على خيال الشاعر العربي وجعلته محدود الافق ، بينما هي جعلته فصيح اللسان يقلب المعنى الواحد على اشكال مختلفة .

الغزل او وصف الحبيبة

قال امرؤ القيس في معلقته :

مهفهفةٌ بيضاء غير مفاضةٍ   ترائبها مصقولة كالسجنجلِ
كبكر المقاناة البياض بصفرة   غذاها نمير الماء غير المحلّل
تصدُّ وتبدي عن أسيل وتتقي   بناظرة من وحش وجرة مطفل

وكذلك الاخذ عند طرفة ولبيد وابن كلثوم وعنترة والنابغة .

ومجمل اوصافهم مستوحاة من اجواء الصحراء . فهي لا تعدو تشبيه صفاء بشرة المرأة بصفاء الماء النمير (وهو اشهى ما يشتهي ساكن الصحراء) وعينيها بعيني البقر الوحشي ، ورقبتها بجيد الغزال ، وشعرها باقناء النخل ، وكشحها بالادم المجدول ، وساقها بأنابيب القصب ، واصابعها بالمساويك او بنوع من الديدان الطويلة المستقيمة ، وبياض ثغرها بالأقحوان بين كثيب ندي من الرمل (وهو بين شفتين مطليتين بالاثمد) وبياض الوجه بنور الشمس (وهي اظهر ما يبدو في سماء الصحراء) ، وطول يديها بذراعي ناقة بيضاء بكر ، وثديها بحق من العاج (كان يرد الى الجزيرة من الهند طبعاً) وطيب رائحة فمها بالمسك ، او بالخمر الذي اصابه ريح الشمال فبرد . . .

فهل في هذه الصور صورة لا تقع عليها عينا البدوي الف مرة كل يوم في البيداء .

وصف الناقة ووصف الفرس

لم يتعرض امرؤ القيس لوصف الناقة ، بل اسهب في وصف الفرس . وهو في ذلك يظهر لنا اثر البيئة الخاصة في نفسه . فهو امير وابن ملك ، لا يحتاج الى سفينة الصحراء ليقطع بها المسافات البعيدة ، وانما يمتطي صهوات الخيل ، يتنزه عليها منتقلا من ماء الى ماء ، والخيل اغلى ثمناً ، وارفع قدراً عند العرب من الجمال ، لذلك كان لا يستطيع اقتناءها غير الملوك والامراء .

وليس من الضروري ان نذكر جميع ما قاله الشاعر في وصف الفرس ، فهو طويل ، وخير ما جاء في ذلك الوصف قوله :

وقد اغتدي والطير في وكناتها   بمنجرد قيد الاوابد هيكل
مكر ؛ مفر ، مقبل مدبر معاً   كجلمود صخر حطه السيل من عل
يُزِلُّ الغلام الخف عن صهواته   ويلوي باثواب العنيف المثقل
درير كخذروف الوليد امره   تتابع كفيه بخيط موصل
له ايطلا ظبي وساقا نعامة   وارخاء سرحان وتقريب تتفل

فترى ان الشاعر شبه خاصرتي الفرس بخاصرتي الغزال بالضمور والهزال وساقيه بساقي النعامة في الطول والدقة ، ومشيه بمشي الذئب والثعلب وكل هذه الحيوانات كثيرة في الصحراء .

ويصف طرفة الناقة وصفاً طويلًا مفصلًا فيقول :

واني لامضي الهم عند احتضاره   بعوجاء مرقال تروح وتغتدي
امون كالواح الاران نصأتها   على لاحب كأنه ظهر برجد
جمالية وجناء تردي كأنها   سفنجة تبري لازعر اربد

ويتابع الوصف الدقيق بمثل هذه اللغة الصعبة التي تبين سعة

لغة البدوي في الموضوع الذي له بحياته علاقة ماسة (وهل هنالك شيء هو امس بحياته البدوية من الابل التي هي عماد الصحراء ، منها مأكل الاعراب ومشربهم وملبسهم ومركبهم !) بينما هو فقير جداً في مفردات الموضوعات التي هي بعيدة عن حياة البداوة، كالسفينة مثلًا ، والبحار والاسماك .

وهكذا يتناول طرفة اعضاء ناقته ، فيصفها عضواً عضواً ، مشبهاً عظامها بالواح التابوت ، وعدوها بعدو النعامة ، وشعر ذنبها في بياضه بجناحي نسر ابيض واخلافها بقربة بالية لانقطاع لبنها ، وفخذيها ببابي قصر منيف املس ، واضلاعها المتصلة بفقارها بالقسي ، وابطيها في السعة ببيتين من بيوت بقر الوحش ، وشبهها وشبه مرفقيها وبعدهما عن جنبيها بسقاء يحمل في يديه دلوين ، وعلوها بقنطرة رجل رومي ، وجنبيها بسقف اسند بعضه الى بعض ، وآثار الجلد في ظهرها بنقر في الصخرة الملساء ، ثم شبه هذه الآثار في تلاقيها وتباعدها ببنائق بيض في قميص مقدود ، وشبه عنقها في ارتفاعه وانتصابه بسكان سفينة جارية في نهر دجلة ، وجمجمتها بالسندان ، وطرف الجمجمة بالمبرد في دقته وصلابته ، وخدها بقرطاس الرجل الشامي في املاسه ، ومشفرها بالجلد اليماني في لينه وعينيها في صفائها وبريقها بالمرآة وبالماء في نقرة صخر ، وحجاجيها وغؤور عينيها فيها بكهفين ، وشبه عينيها في حسنهما بعيني بقرة وحشية مذعورة لها ولد ، واذنيها في تيقظها باذني ثور وحشي منفرد كثير الحذر ، وقلبها في صلابته بصخرة تكسر بها الصخور ، وشبه ما يحيط به من الاضلاع بحجارة عريضة محكمة .

فهل في صور هذا الوصف ما هو خارج عن حياة الصحراء ؟ التابوت والنعامة ، والنسر ، والقربة ، والقسي ، وبقر الوحش ، والسقاء ، والصخر والسندان ، والمبرد والكهف والثور الوحشي ، والحجارة . . . كل هذا يراه البدوي كل لحظة في الصحراء . واما ما جاء من ذكر القصر المنيف والقنطرة الرومية ، وسكان السفينة في النهر ، فهو لا شك منبثق عن مشاهدات الشاعر في اسفاره في العراق ، والشاعر عادة دقيق الملاحظة ، وهذا من تأثير البيئة الخاصة .

واما لبيد فانه لا يصف اعضاء الناقة ، كما فعل طرفة ، بل يجعل همه في تصوير سرعتها ، فيشبهها اولًا بالسحابة الحمراء ، خفت بها ريح الجنوب فدفعتها امامها فاسرعت في جريها وهي خالية من الماء :

فلها هباب في الزمام كأنها صهباء خف مع الجنوب جهامها

وهو يشبهها بعد ذلك بأتان وحشية نشيطة ، غار عليها قرينها من الفحول ، فدفعها امامه يسوقها سوقاً عنيفاً ، حتى اعتزل بها في اعالي الآكام ، حيث سلخا ستة اشهر في الشتاء والربيع يرعيان الرطب صائمين عن الماء :

حتى اذا سلخا جمادى ستة جزءاً فطال صيامه وصيامها

ثم يشبهها ببقرة وحشية افترس السبع ولدها فاسرعت في السير تبحث عنه :

أفتلك ام وحشية مسبوعة خذلت وهادية الصوار قوامها

ولبيد في هذه التشابيه ايضاً محصور الخيال ببيئة الصحراء ، ولا يخرج منها .

ويقتصد الحرث بن حلزة بوصف الناقة فيشبهها بالنعامة في بيت واحد من الشعر فيقول :

غير اني قد استعين على الهم اذا خف بالثوي النجاء
بزفوف كأنها هقلة ، ام رئال دوية سقفاء

ثم يصف الحرث الغبار الذي تثيره وراءها بسرعتها ، ويذكر آثار وطئها في الصحراء .

ويصف النابغة ايضاً ناقته ، ويشبهها بالثور الوحشي ، ثم يقص علينا خبر ذلك الثور وشدته في صراع الكلاب :

كأنما الرحل منها فوق ذي جدد ذب الرياد الى الاشباح نظار
مطرد ، افردت عنه حلائله من وحش وجرة او من وحش ذي قار

وهكذا نرى ان الشعراء الجاهليين ، في وصفهم للناقة ، قد تعاوروا على تشبيهات واحدة تقريباً ، هي منتزعة من صميم الصحراء ، واهمها : الأتان الوحشية ، والثور الوحشي ، والوعل والنعامة . . .

المدح

زهير بن ابي سلمى هو اول الشعراء الجاهليين الذين يظهر في شعرهم المدح . ومن قوله في صاحبيه (هرم بن سنان ، والحرث بن عوف) حين اصلحا بين قبيلتي (عبس وذبيان) :

اذا السنة الشهباء بالناس اجحفت ونال كرام المال في الحجرة الأكل
رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم قطيناً بها ، حتى اذا نبت البقل
هنالك ان يستخبلوا المال يخبلوا وان يسألوا يعطوا ، وان ييسروا يغلوا

وقال في مدح هرم :

ليث بعثر يصطاد الرجال ، اذا ما كذب الليث عن اقرانه صدقا

فهو يمدحهما بالكرم . وقد رأينا كيف ان الفقر في الصحراء هو الذي جعل للكرم تلك المكانة المرموقة . وليس في الصحراء اقوى من الاسد حتى يشبه به الممدوح .

ويمدح النابغة الذبياني النعمان بالكرم، ولكن في صورة جميلة تدل على ان بيئته الخاصة كانت غير البيئة الصحراوية، فقد لاحظ طغيان انهار العراق فى الشتاء. فقال :

فما الفرات اذا جاشت غواربه　　ترمي اواذيه العبرين بالزبد
يوماً باجود منه سيب نافلة　　ولا يحول عطاء اليوم دون غد

وهو يشبهه بالربيع ينعش الناس، وبالسيف البتار قد استعارته المنية :

وانت ربيع ينعش الناس سيبه　　وسيف اعيرته المنية قاطع

ويشبهه ايضاً بالشمس ، والملوك حوله كواكب :

فانك شمس والملوك كواكب　　اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

واكثر هذه التشبيهات لها مثيل في شعر زهير . ولكن فضل النابغة يظهر في الاطار الجميل الذي يضعها فيه . وليست هذه الصور هي الوحيدة في مدائح النابغة ، فهو شاعر الملوك ، تارة يشبه المنذر بسليمان الحكيم ، وطوراً بغيره . على ان الذي يهمنا منها هو ماله علاقة بالبيئة الصحراوية التي نحن بصددها .

الهجاء

قال طرفة في هجاء عمرو بن هند :

فليت لنا مكان الملك عمرو　　رغوثاً حول قبتنا تخور

وقال زهير يهجو آل حصن :

وما ادري، وسوف اخال ادري　　اقومٌ آلُ حصن ام نساء
وتوقد ناركم شرراً ويرفع　　لكم في كل مجمعة لواء

فنرى ان موضوعات الهجاء يدور اغلبها حول التعبير بالجبانة ، والبخل . وهما ضد ملزمات الحياة الصحراوية ، التي تتطلب الشجاعة والكرم كما رأينا .

الفخر

قال عنترة بن شداد :

فاذا شربتُ فانني مستهلك　　مالي وعرضي وافر لم يكلم
ومدجج كره الكماة نزاله　　لا ممعنٌ هرباً ولا مستسلم
جادت له كفي بعاجل ضربة　　بمثقف صدق الكعوب مقوم
فشككت بالرمح الاصم ثيابه　　ليس الكريم على القنا بمحرّم

وجميع مفاخرهم محورها الشجاعة والكرم والمحافظة على العرض وكلها من وحي الصحراء وملزماتها .

الرثاء

قال المهلهل في رثاء اخيه كليب :

انغدو يا كليبُ معي اذا ما　　جبانُ القومِ انجاه الفرارُ !!
انغدو يا كليب معي اذا ما　　حلوق القوم يشحذها الشُفار !!

ومن قوله فيه ايضاً :

على ان ليس عدلاً من كليبٍ　　اذا خاف المغارُ من المغيرِ .
على ان ليس عدلا من كليب　　اذا طرد اليتيم عن الجزور
على ان ليس عدلا من كليب　　اذا برزت مخبأة الخدور

ففي هذا الرثاء تذكر الجبانة والشجاعة والحرب ، والغارات واطعام اليتيم من الجزور ، وكل هذا من وحي الصحراء كما تقدم :

وقالت الخنساء ترثي صخراً اخاها :

يا صخر، ورّاد ماء قد تناذره　　اهل الموارد، ما في ورده عار
وان صخراً لوالينا وسيدنا　　وان صخراً، اذا نشتو ، لنحار
وان صخراً لمقدامٌ اذا ركبوا　　وان صخرا، اذا جاعوا، لعقار
أغرُّ ابلج تأتم الهداة به　　كأنه علمٌ في رأسه نار
حمّال الوية ، هبّاط اودية　　شهاد اندية ، للجيش جرار

ولا يزيد هذا الرثاء عما تقدمه من ذكر الكرم والشجاعة الا بصورة جميلة هي صورة الجبل تضرم فوقه النيران ، حتى يهتدي بنورها المسافرون . وهل كانت الخنساء تأتي بمثل هذه الصورة لو لم تكن رأت امثالها في البيداء ؟ !

الفلسفة في الشعر الجاهلي

هذا اهم ما في الشعر الجاهلي من موضوعات . وهي كما يبدو ، محدودة ضيقة . هي ظل حياة الصحراء ، وصورة صادقة لعيشة البداوة . هي نتيجة لتأثير البيئة العربية العامة ، قد انتزعت صورها وتعابيرها من تلك البيئة ، حتى لتكاد ترسمها رسماً كاملا .

على ان هناك ، في الشعر الجاهلي ايضاً ، ابيات فيها خطرات فلسفية كقول طرفة بن العبد في معلقته :

ارى قبر نحام بخيل بماله　　كقبر غوي في البطالة مفسد
ارى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة　　وما تنقص الايام والدهر ينفد
لعمرك ان الموت ما اخطأ الفتى　　لكالطول المرخى وثنياه باليد

وقول زهير بن ابي سلمى :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب　　تمته ومن تخطىء يعمّر فيهرم
ومن لا يصانع في امور كثيرة　　يضرس بانيابٍ ويوطأ بمنسم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه　　يفره ، ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يعص اطراف الزجاج فانه　　يطيع العوالي ركبت كل لهذم
ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه　　يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
وان سفاه الشيخ لا حلم بعده　　وان الفتى بعد السفاهة يحلم

ولا نستطيع ان ندعو مثل هذه الخطرات مذهباً فلسفياً : لا لأن المذهب الفلسفي هو نتيجة البحث المنظم ، وهو يتطلب توضيحاً للرأي ، وبرهنة عليه ، ونقضاً للمخالفين وهكذا . . . اما

الخطرة الفلسفية فدون ذلك ، لأنها لا تتطلب الا التفات الذهن الى معنى يتعلق باصول الكون ، من غير بحث منظم ، وتدليل وتفنيد . (فجر الاسلام ص ٥٨) —

وفي هذه الأبيات الحكمية نفسها ، لم يستطع الشاعر الجاهلي ان يتجرد من تأثير البيئة القوي . فهو يستعمل صوراً وتعابير منتزعة من صميم الحياة في الصحراء ، كقوله (الطول المرخى) (وهو الحبل الذي تقيد به الدابة حين تسرح للرعي) و (يوطأبمنسم) والمنسم للناقة ، والناقة رفيقة البدوي التي لا يستغني عنها ، واستعماله كلمة الزجاج ، وهي حديدة الرمح ، والعوالي وكلها من اساحة الصحراء .

هذا وفي جميع ما تقدم من شعر ، بل في جميع الشعر الجاهلي تقريباً لا ترى اثراً لشخصية الشاعر الخاصة . فكأن تلك الشخصية اندمجت في القبيلة ، لأن الشاعر الجاهلي ، كما سبق في اول هذا الكلام ، لا يشعر لنفسه بحول ولا طول الا اذا اتحد مع قبيلته والف معها قوة يعتز بها ويباهي الغير .

وهل من ريب في ان حياة الصحراء ، وما فيها من خطر على حياة الانسان كفرد هي التي اوحت اليه مثل ذلك الشعور !؟

البيئة الخاصة

مما تقدم يظهر لنا اثر البيئة العربية العامة في الشعر العربي الجاهلي . اما البيئة الخاصة فانها تتضح في شعر كل واحد من الشعراء .

فالشنفرى مثلاً رجل صعلوك ، يعيش بين الوحوش في الغابات والبراري ، مطروداً ، او مكروهاً من قومه ، يشن الغارات في الليالي المظلمة الباردة ، فيفتك وينهب . وهو ، بحكم هذه العيشة ، قذر . وليس عنده لفقره ، ناقة ولا جواد ، بل هو يعتمد على قدميه ، ويفتخر بسرعة جريه ، وسبقه القطا الى الماء . وتكاد تكون هذه الحياة مصورة تصويراً كاملاً في شعره حين يقول مخاطباً قومه :

ولي دونكم اهلون سيد عملّس وارقط زهلول وعرفاء جيأل
هم الاهل لا مستودع السر ذائع لديهم ، ولا الجاني بما جر يخذل

او حين يصف احدى غاراته في ليلة مظلمة :

وليلة نحسٍ يصطلي القوس ربها واقطعه اللاتي بها يتنبل
دعست على غطش وبغش وصحبتي سعار وارزيز ووجر وأفكل

فأيمت نسواناً ، وايتمت الدة وعدت كما ابدأت والليل اليل

او حين يصف شعره الوسخ :

بعيد بمس الدهن والفلي عهده له عبس عافٍ من الغسل محول

او حين يصف سرعة جريه :

وتشرب اسآري القطا الكدر بعدما سرت قرباً احناؤها تتصلصل
هممت وهمت وابتدرنا واسدلت وشمر مني فارط متمهل

وكذلك القول في امرىء القيس ، فهو امير وابن ملك ، لم يصف الناقة بل وصف الفرس كما تقدم . وحياته كلها لهو وطرب فهو يتنقل من صيد الى شرب الى لعب ثم الى معابثة النساء . . . وكل ذلك واضح في معلقته .

ونستطيع ان نقول القول نفسه في المهلهل من حيث رقة شعره في رثاء اخيه ، وفي طرفة من حيث نطقه بالحكم حين جار عليه الاقرباء ، وفي زهير من حيث الظروف التي دفعته الى مدح صاحبيه ومن حيث تقدمه في السن حتى اختبر الحياة وصاغ نتائج تجاربه بشكل حكم ثمينة ، وفي عمرو بن كلثوم من حيث حادثته مع عمرو بن هند وتفوهه بذلك الفخر الجبار ، وفي عنترة من حيث حبه لعبلة واضطراره الى الظهور بمظهر الشجاعة حتى يتغلب على نقيصة لونه ، وفي الحرث بن حلزة من حيث اضطراره الى الدفاع عن قبيلته ضد عمرو بن كلثوم ، وفي النابغة الذبياني من حيث اضطراره الى الاعتذار من النعمان بن المنذر بعدما وشى به الوشاة اليه ، وفي الخنساء من حيث انصرافها الى رثاء اخويها صخر ومعاوية .

فجميع هؤلاء تأثروا بالبيئة العربية العامة كما مر ، لكنهم فوق ذلك كان لهم بيئة خاصة يعيشون فيها ، قد ظهر اثرها واضحاً في شعرهم ، حتى امتاز كل واحد منهم بميزة عرف بها ، وطغت على سائر ماله من المميزات الضعيفة الاثر .

فاذا ذكر الغزل في الجاهلية مثلاً ، ذهب بنا الفكر الى امرىء القيس ، واذا ذكرت الحكم ، ذهب الى زهير وطرفة . وهكذا قل في الفخر والرثاء وبقية فنون الشعر في العصر الجاهلي .

وهذه البيئة الخاصة ايضاً هي التي كانت تؤثر في اسلوب الشاعر فتجعله خشناً (كما في شعر الشنفرى) او رقيقاً يسيل مع العواطف (كما في شعر المهلهل) مع ان الاثنين كانا يعيشان في عصر واحد وبيئة عامة واحدة .

صيدا حسن باشو



انتظرها في الجهة الخلفية من ذلك المعهد عندما انحسر الغروب فجأة عن اربداد موحش قاتم وتبدلت السماء غير السماء . فاذا بالبرق يبهر الابصار وقصف الرعد يصم الآذان وينذر بهبوب اعصار جامح رهيب . وما هي الا لحظات حتى انقطع مجرى النور الكهربائي وساد ذلك « المنتظر » ظلام دامس ادخل الى قلبي الشيء الكثير من الروع والتشاؤم . ولكنني لم ابرح مكاني بل ظللت اذرع طوار المعهد جيئة وذهابا تضطرم في نفسي نقمة سوداء على الطبيعة ويعتمل في خاطري تساؤل ملح : أتحنث بالوعد وهذه الطبيعة تشجعها على الحنث ، ام تأتي رغم تلك الثورة الصاخبة التي تمثلت في كل مظهر من مظاهر الوجود الطبيعي ؟ أتعتذر اليَّ غداً لاضطرارها الى التخلف عن المجيء . ام تراها تصيخ الى صوت قلبها فتلبي نداءه وتجازف بكل شيء . ؟



ولا أدري لمَ كنت على يقين من انني سأراها ذلك المساء ، وسأجتمع بها وسأفصح لها عن حبي الصامت الذي لم يكن يمكنني يومذاك ان اطيق وطأته على نفسي ، تلك الوطأة التي كانت تشتد يوماً اثر يوم .

ومضت نصف ساعة على الموعد المضروب دون ان تصدق فراستي مرة فتكون هي احدى عابرات ذلك الشارع الطويل المظلم . أجل ! كنت اتوقع ، كلما بدا لي عن بعد شبح فتاة يتجه نحوي ، ان تكون هي ذلك الشبح فتطمئن نفسي ويهدأ روعي ، حتى اذا ما تبينت خطأي وتحققت خيبتي عادت الي الوساوس وركبتني الظنون . بيد انني رغم كل ذلك كنت موقناً بأنها آتية واستمررت ارتقب امرين اثنين : قدومها وهطول المطر الذي كانت السماء المربدة لا تزال تتمخض به .

هذه هي ، ولكنها تسير الهوينا ، يبدو انها عجوز شمطاء ، ثم اقتربت مني ومضت وتبعها كثيرات وكثيرون .

هذه المرة لن اخطىء . . . وانا اؤكدان ذلك الطيف المتحفز هو طيفها ، وبعد برهة مر الطيف بجانبي ثم انطوى في الظلام لا يلوي على هذا المتيم الحسير . وبينا انا في ذهول الانتظار اذا بصوت كالهمس يريدني ان اتبع صاحبه دون ان ابس بنت شفة . وكان صاحب الصوت هي ، فتبعتها وما جرأت على محاذاتها اذ حملني هذا التحفظ على ان اتهيب الموقف واسير في اثرها كمن على رأسه الطير . وبعد مسيرة خمس دقائق رأيتها تترسل في خطاها حتى اذا ما ادركتها تأبطت ذراعي وتنفست الصعداء كأن ثمت خطراً قد زال .

لم اشأ ان استكنهها هذا التدبير بل آثرت ان اتوصل بنفسي الى ادراك معناه فيما بعد لا سيما وان فرصة اجتماعي بها لا تسمح بصرف الوقت في امور غير ذات بال .

ولشد ما راعني ، على حين غرة ، انجلاء السماء عن بدر ساطع يبدد دجنة ذلك المساء ويكسو كل شيء بحلة من الضياء المسحور : وكنا قد بلغنا آنذاك غيضة فيحاء تمتد على الضفة اليمنى من النهر ، ذلك النهر الذي اسميته « سميرنا » لانه هو وحده الذي كان يلقانا في تلك الخلوات اللذة فيرحب بنا رقراقاً رتيب الجرس حتى ليخاله الانسان لحناً من السماء .

لم يكن التعب قد اخذ منا بعد ، ولكننا شعرنا برغبة في الجلوس على ضفة النهر نشارك القمر ذلك المجد الذي بسطه على الارض ونشكر للطبيعة حسن وفادتها لنا ، فافترشنا منديلين وجلسنا نتأمل انسياح النور على وجه الماء كلما تكسرت منه دفقة او هبت عليه ريح . وطال تأملنا كأنما انقلب الى صلاة خاشعة ، فلا نأمة تعكر ذلك السكون المطبق ولا صدى يتجاوب في ضمير الاشياء . ولم أعِ من هذه النشوة الحلمة الا على صوتها يقول لي متسائلاً : — ولمن كل هذا الوجود الرحب .

— انه لنا نحن الاثنين . افلا تتحققين سلطانك على هذه المرئيات جميعها ، وهل ثمت من يقاسمك هذا السلطان ؟

وكأنما لم تطمئن الى جوابي فأردفت :

— وما نصيب الله اذاً مما ابدعت يداه؟

فابتسمت وقلت :

— ومن نحن ؟ ألسنا جزئين من الكل الالهي ؟ أو ليس الله كامناً في كل مخلوق من مخلوقاته يعبر عنه هذا القمر المطل من عليائه وهذا النهر المنساب بين خمائله وهذا الشذى المتضوع من كل صوب وهذان الروحان الحالمان على ضفة النهر ؟

اجل يا عزيزتي . ان الله قد خلق الارض لنكون فيها آلهة وجعل الحب طريقاً نلجه اليه . وعندما تجد النفس البشرية نفساً ثانية تنسجم معها وتذوب فيها تكون هاتان النفسان قد تكاملتا وارتفعتا عن مستوى الدهماء واصبحتا في طريقهما الى الله .

واصطبغت وجنتاها بحمرة قانية وتمتمت شفتاها بخفر : رباه ! ما احب سلوك هذا الطريق الى نفسي ، ثم قالت تخاطبني :

— ولكنه طريق لا يخلو من الاشواك والعثرات يندفع فيه الانسان اول الامر تحدوه عذاب الآمال وتدغدغه باسمات الاحلام فلا تلبث اشواك الطريق ان تدمي قدميه وتقوم في وجهه عثرات تعترض سبيله فيقف زمناً حائراً متألماً ثم لا يرى خيراً من الاياب فينكص على عقبيه يحمل بين اضلاعه قلباً حطيماً هو كل الضحية . أفلا ترى بعد يا عزيزي ان ابتغاء الله عن غير هذا الطريق أفضل وأبقى ؟

فلم أحر جواباً ، ذلك ان هذا النحو من التفكير الذي نحته قد بسط على نفسي شيئاً من سيطرة الالزام وكبرياء الحجة لانه مستمد من واقع الحياة وتجاربها ، هذه الحياة التي تشيع كل يوم « عابر طريق » وتواري في غياهبها بقايا قلب . . .

وآلمني ان يعبر صمتي عن اقتناعي بما ذهبت اليه ، فلم اشأ ان يطول بي هذا الصمت بل اجبت بروية :

— ان هذه المآسي التي تتمثل على مسرح الزمن بين آونة واخرى ابطالها اناس لم ينضج في عقولهم معنى انصهار الذات في ذات اخرى ولم يكتمل عندهم شعورهم بحرمة هذا الوثاق الذي يجمع بين قلبين وايمانهم بقدسية هذا الطريق الذي يلجونه الى الله . انهم يسلكونه وفي اعماقهم رغبات دنيا تستعر لا يبتغون غير المتعة الرخيصة تروي ظمأهم واللذة العابرة تطفيء غلة اجسادهم . ولذا ما ان يسيروا في الطريق خطى معدودة حتى ينكصوا على اعقابهم ملومين حسيرين ، اما نحن . .

ولم تدعني اتابع كلامي بل اضافت : — أجل ! اما نحن فقد خلقنا الله لنتكامل ونسمو عن مستوى الدهماء ونسير جادين في طريقنا اليه . وتعاقدت الايدي بعد ان تعاقد القلبان تؤكد العهد الذي اخذناه على نفسينا في ان نسير طريقنا الى الغاية . . .

ثم نهضنا متثاقلين وبودنا الا نريم وسرنا محاذيين ضفة النهر حتى بلغنا الجهة الخلفية من ذلك المعهد . . . »

. . . ثم صمت صديقي برهة طويلة وصعد من قلبه زفرة ملتاعة كانت خاتمة حديثه الشجي وقال مطرقاً : لقد كان ذلك منذ اربعة أعوام .

رشيد شقير

الاديب

☆

— لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها من شهر كانون الثاني (يناير)

— تدفع قيمة الاشتراك مقدماً وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة لبنانية

في الخارج : ١٥٠ قرشاً مصرياً او ٦ دولارات ونصف

اشتراك الانصار :

في لبنان وسوريا : ١٢٠ ليرة كحد اعلى

في الخارج : ١٤ جنيهاً مصرياً او استرلينياً او ٦٠ دولاراً كحد أعلى

☆

— المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

●

— للاعلان يراجع المدير الفني : مختار شملي

○

ادارة الاديب : باب ادريس ، شارع الكبوشية

●

صاحب المجلة ورئيس تحريرها : البير اديب

☆

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب — صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت — لبنان

حمى

مهداة الى الطبيب الشاعر حبيب ثابت

•

حمّى تلظت في الحنـايا نارها ... وبدا بانسان العيون اوارهـا

عصفت فبلبلت المشاعر والنهى ... وسطا على اللب الحصيف بخارها

ومشت تدب الى المفاصل خلسةً ... كدبيب خمرٍ قد دهاك خمارها

تنساب كالرقطاء تنفث سمهـا ... بدم العليل فيعتريه دوارهـا

وتئز داويةً بسـاح دماغه ... فكأنما راس المريض مطارهـا

تقتات من دمـه فتشحب وجهه ... وتطل من قسماتـه آثارهـا

هدامة الاعصاب تورثهـا الضنى ... فتاكة بقوى الجسوم شفارهـا

تذر المريض وقد تقوض عزمه ... طللًا يلوح بجانبيه دمارهـا

الدامور ... الطبيب عزيز عوده

ابتهال

•

ايهـا الحب انت خمر السماء ... انت سر الطبيعـة الخرسـاء

إن دنيـا الوجود جذب ودفع ... هكذا الحب سر هذا البقـاء

وزقاء الطيور الحـان وجدٍ ... رددتهـا في ضحوة ومسـاء

كل ما في الوجود اكسيره الحب ... ومغنـاه نفحة من رواء

وفتـاة تفردت بجمالٍ ... عبقريٍ مضمّخٍ بشـذاء

هي احلى من الضيـاء وانقى ... من شعـاع للشموس والانداء

وشفاه مقرمزات عليهـا ... حمرة الفجر في مطاوي المـاء

حومت انفس العطاش عليهـا ... كفراش يحوم حول ضيـاء

فاسكبي من دنان روحك خمراً ... في كؤوس من الجمال وضـاء

والعبي بالعقول منا فانا ... رهن امر المليكـة السمراء

فاديري سلاف ريقك واسقي ... شاعراً من مراشفٍ لعسـاء

فجلال الربيـع مهما تسامى ... لا يداني تقبيلة الحسنـاء

لاباز ـ بوليفيا ... السكعدى

الشاعرة الاميركية : سارة تيسديل

عن ديوانها اناشيد الغرام

☆



الريح

الريح تهب على روحي ،
اني أسمعها صارخة طيلة الليل
أما من سلام على الارض
إلا معك ؟

☆

واأسفاه ، لقد علمتني الريح
اذ هبت على روحي العارية
أنْ لا سلام لي على الارض
حتى معك !

ذهب

بمَ أنا مدينة لك
يا من أحبني حباً عميقاً طويلاً ؟
فأنت لم تهب روحي أجنحة
ولم تهب قلبي أغنية .

☆

ولكن ، آه ، لمن احببت
ولم يحبني ابداً
انا مدينة بالباب المفتوح
الذي نفذ بي عبر جدار السماء .

الشبح

لقد رجعت الى المدينة الصاخبة
وقصدت مستقر عشاق القدماء .
ولكنَّ قلبي كان مليئاً بمجد حبي الجديد ،
وكانت عيناي ضاحكتين ، غير هيابتين

☆

ولقيت عاشقاً كان قد احبني بجنون
وجعل حديث حبه ملء الأسماع
فتحدثنا معاً حول آلاف الاشياء ،
اذ لم يعد الماضي الدفين في الاعماق يخيفني!

☆

آه ، ان الحب الذي يحيا مع الموح
والحب الذي يحيا مع الدموع
قد يموتان — ولكن الحب الصامت
يظل منسلاً كالشبح في الأعوام الراجعة .

البصرة رزوق فرج رزوق

رسالة الضمير الى العلم

بقلم فوزي غازي

☆

المجتمع ركنه التوازن والتوازن ركنه الانقياد: « تلك هي الكأس التي انسكبت فيها عصارة تفكير علماء الغرب والشرق . »

اجل ما من مجتمع يقوم الا بانسجام عناصره واستخدام بعضها للبعض الآخر وما ذلك الاستخدام الا وصاية قوة على قوة ، ووصاية تكاد احكامها تخالط احكام العبودية والرق ، حيثما السيد يملي اوامره على المسود ، وحيثما الروح المحركة تدير المادة الساكنة . واشد مظاهر ذلك الانقياد حدة وتطبيقاً ، هو انقياد المعرفة للوجدان، انقياد العلم للضمير .

لكل من الناس شعور مطبوع وحدس موروث، بالانظمة والقوانين الاخلاقية . هل رأيتم آدمياً لا يعرف الخير ويحدد شروطه ؟ .

لا يمكن لشعب ان ينحو نحو الخلود والمجد الامثى استهبط كل وطني فيه من جو النظرية والخيال مبادئه الاصلاحية المتغلغلة في غريزته ، فجعلها جسداً بعد ان كانت روحاً ، وعملاً بعد ان كانت فكراً وقولاً ! على هذا الاساس تشيد الامم الراقية وتحت تلك الاضواء تسلك الشعوب المتمدنة .

وما علماء الغرب بغرباء عن الحقيقة لتمر بهم تلك الانوار واعينهم مرشوقة بالرماد انهم فتحوا لها النوافذ والابواب ولكن هل لا يزال الغرب فاتحاً نوافذه وابوابه ؟ . . .

قال مونتين الشاعر الفرنسي الذي طالما ردّد القرن السادس عشر صدى آياته وافكاره خلال محاضرة القاها حول اصوب مناهج التربية الاخلاقية — « ان العلم الذي لا يدعمه الضمير يهدم كل شيء » . وكأنه بتلك النبوّة خطا فوق اربعة قرون من قرنه فشهد آخرها (اي القرن العشرين)

وهنا يتبادر الى الذهن سريعاً سؤال لم يكن فضولنا ليمر به دون اثارته : ما كان شأن الاقدمين حول انقياد العلم للوجدان والضمير هل اقروا هذا المبدأ واحلوه المحل اللائق به ؟ .

افاق اليونان في عهد ارسطو وسقراط وافلاطون من سبات رسفوا فيه طويلاً وهجعة ممضة كان للجهل فيها السلطان الاكبر فاخذوا ينظمون العلم صفحات ومؤلفات حتى استقروا في اوج المعركة وحتى غدت اثينا مدرسة العالم . . .

وقد عبدوا المعرفة الى حد انها اضحت عندهم المقياس الذي لا يخطيء في وزن الاخلاق والصفات النفسية . صالح وفاضل هو من تثقف وادرك ، وفاسق شاذ من جهل واخطأ او بكلمة اوضح ان مجرد التفكير المنطقي الذي لا يشوبه غموض ويخالطه وهن ، كان يكفي لوضع الفكرة موضع التنفيذ دون اللجوء الى الارادة لتقول كلمتها فيها .

وهكذا لم يتردد الاقدمون كسقراط وما سلفه من الفلاسفة عن القول انه ليس من خاطيء او مجرم يطلع بشره طوعاً وانه ليس من عمل دنيء الا وسببه الجهل ان الفكرة التي بدرت لذهن الخاطيء على زعم هؤلاء كانت بدون ان يشعر خاطئة ، وبالنظر الى ان ملكة التنفيذ موجودة في الفكرة نفسها فمن الطبيعي ان تتحقق عفواً . . .

ابى مونتين ومعه علماء القرون المتمدنة ان ينسجوا على منوال الفلاسفة اليونانية القديمة التي لو تبنى احكامها القرن العشرين لافلس النسل واجدب الجنس البشري !

لقد وضعنا نحن ابناء الجيل الحديث جسراً بين الفكرة وتنفيذها ، لقد شيدنا معبداً تؤم اليه الفكرة قبل ان تلبس

جسدها ، فتخلع ادرانها وبرائنها في مغسل الضمير حيثما تكمن طائفة من الاعتبارات والخواطر ترقب الافكار وتلهمها على امضاء الصالح : المسؤولية ، حقوق الغير الواجبات. . انني اترك لتقدير القارىء عواقب مجتمع اطلقت المعرفة فيه العنان دون رقيب او ناظر ، غير آبهة بحقوق الغير ضاربة بالواجبات عرض الحائط .

بدر لذهن احد كبار علماء القرن الثامن عشر للعلوم الطبيعية ان يقتل رقيقاً ليشرّح جسده فيقف بذلك على سر الحياة المنبعثة من العصب على حد تعبيره . ولكن وجدانه النابض كقلبه ، ابى ان يدوس روح انسان مشيداً العلم على رفاة الضمير فعدل عن فكرته .

لم تكن الشعوب الضالحة في يوم من الايام لتخلد في حقل العلوم المادية تلك العلوم التي لاتنمو الابالاختبارات والتجارب السالكة في الاجسام الحية ، تلك العلوم التي لا تتوانى عن اماتة الروح لاحياء المادة الجائرة. . . لا تفتأ شعوب الشرق الخاشع امام الفضيلة الناسك في صومعة الانسانية غريبةعن العلوم الوضعية كسيحة وسط اجسام الغربيين الصحيحة ، ان المانيا النازية ابدعت في العلم المادي واخفقت فيما فوقه وكان ابداعها في هذا على حساب اخفاقها في تلك .

اشاح الاقدمون بوجوههم عن مبادىء العدل والمساواة فتوصلوا رغم سذاجة تفكيرهم وبداهة ادراكهم الى المضي شوطاً غير قليل في الاختراعات اليومية ، فاوجدوا الفأس حسبما ارادوا مستجمعين عناصره من كل حدب وصوب ، هازئين بحقوق صحبهم وجارهم مضحين بارواح الحيوان والانسان توصلاً للهدف الذي اقروا بلوغه وعلى كل حال ان تلك الخطوة الضاربة في اغوار الظلمة والجهل هي خطوة تأسيسية لم تكن لتنجح لو تلقنت اصول الصلاح باكراً اما اليوم وقد جالت احبال المعرفة والنور في اغوار الارض وسالت قطراتها في اعماق النفس فعلى الضمير ان يربط تلك الاحبال لتتماسك وان يصفي تلك القطرات لتتمازج .

ان الفضيلة في كثير من الاحيان لا تستمد علة وجودها من الثقافة والاطلاع كم عمل برّ واحسان كان وليد السذاجة والتوجيه الغريزي قبل ان يكون وليد الفلسفة والتفكير المنقب كان الفلاح لايؤم الكنيسة او الجامع لانه تبحر في العلوم الدينية وسبرغورها انه ان امتثل امام خالقه وربه ، فلارادة خفية ووحي سري اهاب به ان يترك حقله وكرمه ليسبّح عظمة الله وخلوده .

كم من متشرع متفقه يرفض ان يجعل من معارفه منهجاً يسالك عليه في اجرآته اليومية وذلك لان عقله تكلم دون ان

يركن الى همس ضميره ، وكم على النقيض من جاهل في القانون نراه ينفذ احكامه اتما تنفيذ لانه وان جهل النص لا يجهل العدالة المستكنة في اعماقه !

ربما كان الكفاح والحرب والتنازع على البقاء لازماً في باكورة الحضارة وفجر الحياة الاجتماعية حين كان الانسان يجوب الارض التماساً للقوت وطلباً للعيش غير متورع عن قتل اخيه ونهب قريبه ليعزل اسرته ويؤمن على رغيفه ، وكان الجوع الباعث الاكبر على دوس حقوق الانسان وحياته ، ولكن هل من مبرر اليوم لسفك الدماء وقد بلغنا ذروة الحضارة ، هل مقدر لنا ان نرى الهبوط بعد الذروة والعتمة بعد الفجر ، في هذا الموقف يميل الانسان الى آراء المتشائمين اليائسين من صلاح البشرية واستقامة احوالها ، وقد يساعد على هذا الشك ان الاديان نفسها لا تقدم لنا فكرة رفيعةعن طبيعة الانسان ولا تغالي بقيمة الحياة البشرية وتؤيدها في ذلك الحكم الشائعة والامثال السائرة ولم يكن روسو (Rousseau) الا من عداد هؤلاء اليائسين عندما قطع الامل والرجاء من صلاح الانسان وسداد رأيه وردد معه كثيرون ممن اتسموا بالحكمة فجيبون مؤرخ الدولة الرومانية مثلاً يقول « ان تاريخ العالم هو تسجيل جرائم الانسان وحماقاته وكوارثه »

ان العلم الطليق المتحرر من قيود الصلاح والاخلاق ، لا تقف في سبيله عثرة ، وهو عثرة في كل سبيل .

المحامي فوزي غازي

صباح يوم الاحد

« اشخاص هذه التمثيلية من الخيال فاذا انطبقت على الحقيقة فهم الذين اعنيهم . وهم الذين اهديها اليهم . . . !!

بقلم اسماعيل الجبروك

☆

(« كلارك . . محل مبيع الهدايا » . . .
الوقت عصراً . . . راشيل خلف الفترين الفخم . . . عجوز يجلس على « الكيس » نائماً او يدعي النوم ، عربة باكار ذات مقعدين تقف على باب المحل الخارجي . . . يخرج منها خيري بك الشاب الانيق . . . ويتجه صوب راشيل التي اندفعت نحوه ترحب به .

خيري — انتقي لي . . . لو سمحت . . اجمل هدية في المحل . .

راشيل — لسيدة طبعاً ؟

خيري — لو كانت لرجل لانتقيتها بنفسي وما وجدت صعوبة في العثور عليها (ينظر اليها نظرة ذات معنى)

راشيل — (تبتسم) وثمينة طبعاً . . عشرة جنيهات مثلاً . .

خيري — اكثر . . . !

راشيل — عشرين . .

خيري — ثلاثين لا مانع . .

راشيل — (تذهب وتأتي بزجاجة بارفان نادرة) لقد وردت هذه لنا بالطائرة امس من باريس ان رائحتها لطيفة . . . ألم تصل اليك ؟

خيري — ان رائحتك تطغي على كل حواسي . . .

راشيل — أنا ؟ . . . انا لا رائحة لي . .

خيري — ان لك رائحة لا تدركها غير انوف الرجال . . .

راشيل — وأية رائحة هذه ؟

خيري — رائحة الانوثة الجائعة الظمآنة .

راشيل — (تحاول ان تغير مجرى الحديث) اؤكد لك انها أقيم هدية في الاسكندرية كلها . . .

خيري — قولي في العالم كله . . ألا تكفيني اليد الممسكة بها . . . !

راشيل — هل نسيت صاحبة الهدية . ؟

خيري — ولكني اذكرك . . .

راشيل — وهل نسيتك هي . . ؟

خيري — قد تنساني . .

راشيل — وقد لا اذكرك . ؟

خيري — ولكن لن أنساك . . . !!

راشيل — ككل الرجال . !

خيري — ولست ككل النساء . !

(العجوز الجالس على الكيس ينظر اليهما بغضب)

راشيل — اؤكد لك يا سيدي انها سوف تحوز قبولاً .

خيري — كما حازت من انتقتها . . . !

راشيل — يا لكم من مخلوقات لا هم لها في الحياة غير الغزل .

خيري — كيف اثبت لك اني لست هازلا معك .

راشيل — كما سيثبت لها انك كنت هازلا معها . . .

خيري — من هي . . ؟

راشيل — صاحبة الهدية . . !!

خيري — اقسم لكِ بعينيكِ انك وحدكِ المائدة الشهية لجائع مثلي . . .

راشيل — وستشبع ثم تقذف بالمائدة وما تبقى عليها . . .

خيري — ولكني سأجوع مرة اخرى .

راشيل — وستبحث عن مائدة اخرى . !

خيري — حتى اذا طابت لي المائدة الاولى ؟ . .

راشيل — ستزهدها بعد مرات . . .

خيري — ومن أدراك . . ؟

راشيل — ألم تزهد المائدة السابقة ؟

خيري — اية مائدة ؟

راشيل — صاحبة الهدية . .

خيري — الا لعنة الله على صاحبة الهدية هذه التي ستحرمني من . . .

راشيل — من مائدة جديدة حافلة . . اليس كذلك ؟ . .

خيري — حقاً حافلة . . وبكل ما يشتهي . . . هذه العيون . .

راشيل — لم تعرف الاثم ..

خيري — وتلك الشفاه ...

راشيل — لم تذق الاثم ..

خيري — وهذه الـ ...

راشيل — اخفت صوتك ان العجوز يتلقط الهمسات .

خيري — انه يرقبنا وفي عينيه بريق عجيب ...

راشيل—التمس له العذر . . انه مفتون

خيري — مفتون ؟ !! .. بمن ؟ ..

راشيل — بمن تدعي انها فتنتك ..!!

خيري— بالله! حتى هذه البقية من قلب استطعت ان تحركيها .. فتحب ..!!

راشيل — انه يدعي ذلك !

خيري — وهل تصدقينه ؟ ..

راشيل — ولم اكذبه ...!

خيري — افهم انك تحبينه !!

راشيل — ولم اكرهه ! ...

خيري—انك تثيرينني بحديثك هذا ..

راشيل — ان المرأة في حاجة الى من يحنو عليها ..

خيري — ولكنها اشد حاجة الى من يقسو عليها ..

راشيل — هي لا تحب القسوة !

خيري—بينا تحب من يقسو . ما اسمك؟

راشيل — ريرى ... راشيل ..

شوشو . شيلي . كل هذه اسمائي ..

خيري — سأدعوك راشا . . وسأناديك هكذا ..

راشيل— وما حاجتك الى ندائي .. ؟

خيري — وهل تخرجين من حياتي سريعاً هكذا .. ؟

راشيل — كما دخلتها ..

خيري— لست من النساء اللاتي يدخلن في حياة الرجل ثم يخرج (العجوز يسعل) ..

ان الرجل ما زال يرقبنا .

راشيل — حذاري ان يسمع حرفاً واحداً والا فالويل لي .

خيري — الويل لك ؟ ! .. وماذا يستطيع ان يفعل بك ؟

راشيل — يطردني بأقل اشارة من اصغر اصبع من يده اليسرى .

خيري — وانا اشتري لك هذا المحل ان اردت .

راشيل — وماذا يدعوك الى شرائه .. ؟

خيري — لكي يظل ذكرى لقائنا الاول ...

راشيل — لست ادري لماذا اميل الى تصديقك ؟

خيري — لاني صادق واقسم على ذلك ... متى نلتقي يا راشيل ..

راشيل — الى هنا ولا تجهد نفسك يا صديقي . عد الى مائدتك التي تناولت عليها غذاءك منذ ساعات ..

خيري — لم تعد هناك مائدة ترضيني غيرك ...

(العجوز يسألها بصوت مرتجف وبلهجة فرنسية سليمة عن حساب سابق فترد عليه ردا مقتضبا)

راشيل — ان هذه «البارفان» لا يمكن ان تجدها في محل آخر .

خيري — انها ليست «البارفان» وحدها التي لا يمكنني ان اجدها في محل آخر .. متى نلتقي يا راشيل؟

راشيل — لا .. !

خيري — استحلفك بشبابك ... يوم الاحد صباحاً .

راشيل — على الا تتكرر ...

خيري — لن اكررها ..

راشيل — يوم الاحد !! اوه تذكرت لشد ما انا آسفة . فيوم الاحد مرتبطة بميعاد .

خيري — فلتخلفي هذا الميعاد ...

راشيل — فليكن .. من اجلك سوف اخلفه ولكن لا تنس انك انت الذي علمتني كيف اخلف المواعيد ... !

خيري — الا مواعيدي (وبصوت مرتفع) ان ثلاثين جنيهاً كثيرة على هذه الزجاجة الصغيرة ...

راشيل — (هامسة) حقاً انها لتكلف المحل اكثر من سبعة جنيهات فاياك ان تبتاعها (بصوت مرتفع) توجد اخرى اصغر حجماً وبعشرين جنيهاً ..

خيري — الا توجد أقل ؟

راشيل — بعشرة مثلاً ؟

خيري — اقل .. خمسة لا مانع ..

ولكن ألا تري (هامسا) وان صاحبة الهدية لم يعد لها وجود ولا حياة ..

راشيل — (بصوت مرتفع) كما ترى يا سيدي .. !

خيري — من المستحسن ان امر معها لتنتقي هي بنفسها ما تشاء ... وآسف لما سببته لك من مضايقة وازعاج (هامسا) يوم الاحد « يا راشا » .

راشيل — (هامسة) يوم الاحد ايها العزيز ...

خيري — اوريفوار ...

راشيل والعجوز — اوريفوار مسيو .

(يخرج خيري بك وعلى فمه ابتسامة الرابح السعيد)

العجوز — (وهو يكمل عملية حسابية)

هل تم كل شيء يا صغيرتي ...

راشيل — وعلى ما يرام .

العجوز — ومتى يا راشيل ؟

راشيل — يوم الاحد صباحاً ...

دمنهور اسماعيل المبروك

الاب انستاس الكرملي

٥ آب ١٨٦٦ — ٧ كانون الثاني ١٩٤٧

بقلم احمد عويدات

☆

• ولد في بغداد في ٥ آب ١٨٦٦

• لبناني الاصل . والده مخائيل عواد من بحرصاف (لبنان) — على مسافة ميل من بكفيا —

• كان ابوه في ذلك الحين يرافق اميراً من آل بونابرت للترجمة . وطاف معه قرابة سنتين في مصر والعراق وايران والاناضول وسورية . واثناء تطوافه في العراق عرف الفتاة مريم بنت اوغسطين جبران، فتزوجها واقام في العراق حيث رزق منها خمسة ذكور واربع اناث كان احدهم الاب انستاس ماري الكرملي .

• تلقى علومه الاولية في مدرسة الآباء الكرمليين في بغداد .

• لم يكن يزيد عمره على السادسة عشرة حين عهد اليه بتدريس اللغة العربية للبنات وجماعة من الافرنج .

• قصد لبنان سنة ١٨٨٦ وحصّل اللاتينية واليونانية في المدرسة اليسوعية .

سافر الى أوروبا وامضى سنتين في دير الآباء الكرمليين في شفرمون — قرب مدينة لييج في بلجيكا — وفي لاغفو . وست سنوات في ديرهم بمدينة مونبليه بفرنسا واستوعب الفلسفة واللاهوت واصول اللغات

• رسم كاهناً وعمره سبعة وعشرون عاماً .

• عند رجوعه من اوربا زار الاندلس ١٨٩٤ للوقوف على ما خلفه العرب من تراث .

• في العراق ولاّه الآباء الكرمليون نظارة مدارسهم ومدرساً للغة العربيـة وآدابها في الصفوف العليا .

• اصدر مجلة سنة ١٩١١ اسماها « لغة العرب » تبحث في اللغة العربية والتنقيب عن آثارها وتصحيح مفرداتها . وفي السنة نفسها انتخب عضواً في مجمع المشرقيـات الالماني . ومن بعد في المجمع العلمي العربي في الشام سنة ١٩٢٠ . والمجمع العلمي في جنيف .

• اقترنت المرحلة الاخيرة من حياته بقصة كان لها صداها في الاوساط الدينية والادبية اذ اصدرت الكنيسة اليه امراً منذ نحو عشر سنوات بالاعتكاف النهائي في دير الكرمليين في حيفا . ومثل هذا الاعتكاف يعني الانقطاع الكلي عن العالم والتفرغ التام لعبادة الخالق . وقد اذعن الاب الراهب لهذا الامر دون جلبة او احتجاج طبقاً للتقاليد الكنسية المتبعـة في اديرة الكرمليين . وكان من جراء ذلك ان انقطعت صلاته بالعالم الخارجي فلم يعد يتصل باصدقائه والمعجبين به . وكان ان سرت الانباء بين معارفه فقاموا باتصالات كثيرة . وتوالت الاحتجاجات على هذا الموت المدني . وبادر اصحابه الى رئيس الدير ونقل الخبر الى الصحف فنشرته ونقلته الصحف الاجنبية . وكان الموضوع محل اهتمام وكالات الانباء العالمية ومحل اتصالات كثيرة مع الفاتيكان ويبدو ان وجهات النظر ومالمكانة الفقيد الراحل من منزلة ادبية وعلمية رفيعة كان عاملاً مهماً اذ تقرر الافراج عنه بعد احتجاب كامل استغرق اكثر من عام .

• اختير في المدة الاخيرة ممثلاً للعراق بمجمع فؤاد الاول للغة العربية بمصر .

• كان ينزل في دير سانت تيريز بشبرا اثناء دورات المجمـع . ولكن المرض اقعده عن الحضور في الدورة الحالية . فقصد فلسطين للاستشفاء ثم عاد الى العراق عقب شعوره بالتحسن .

علومه

لقد كان الاب انستاس علامة بحق، فهو بمثابة موسوعة للعلوم اللغوية القديمة والحديثة . فقد درس الفلسفة واللاهوت واكب على درس اللغات القديمة فاجادها اجادة كاملة جعلته يبحث ويغوص في اعماقها يناقش ويقابل وينقب بين الآثار القديمة دارساً النصوص بدقة لا مثيل لها .

يتبين ذلك بوضوح حين نراه يتقن عدة لغات قديمة منها اليونانية واللاتينية وقد اجادها في مدرسة اليسوعية كما ذكرنا ، والتركية والفارسية والصابئية والعبرية والسريانية والكلدانية . والم بطرف من الايطالية والبرتغالية ، وقد نسي الحبشية والاسبانية بعد ان تعلمها . ويعتقد بعضهم ان فقيدنا الاب الكرملي يعرف الالمانية الا انه في الواقع لم يتح له وقت لدراستها وقد طلبته الكنيسة الى العراق .

نضيف الى ذلك مكتبة الدير التي ادخر في خزائنها حتى عام ١٩١٤ اكثر من ١١ ألف كتاب عربي مطبوع و ٨ الاف كتاب مطبوع باللغات الاجنبية، وكلها تبحث في الشئون العربية، و ٧٨٣ كتاباً مخطوطاً ومنها المخطوطات النادرة الوجود في المكتبات الكبيرة في الغرب كديوان السموأل ، وديوان امرىء القيس وديوان المزرد وفضل الكلاب على من لبس الثياب ، ونسخة كاملة من ٣٢ جزءاً من كتاب مرآة الزمن لابن سبط الجوزي ونسخة كامـلة من الخصائص وكتاب العين للخليل بن احمد . والمقاييس لابن فارس ونسخة تامة من كتاب ديوان الادب للفارابي ، وقد عني بنشر بعضها ، الا ان الحرب العالمية الاولى اطاحت بهذه المكتبة الثمينة وقد نفي

وشرد في الاناضول ما يقرب من السنتين .

الا ان الاب الفقيد لم ييأس ولم يدخل السأم الى نفسه بل صمد امام احداث الزمن ولم تهزه المصاعب ، فانشأ مكتبة جديدة كانت تضم حتى عام ١٩٣٢ ما ينيف على ١٥ ألف كتاب مطبوع و ١٥٠٠ كتاب مخطوط منها ما هو نادر الوجود .

ولقد احاط الفقيد بالعلوم المختلفة ووقف على القديم وتعمق باسراره ، فهو يرجع باللغة الى اصولها وقد تكلفه لفظة من البحث والتنقيب فضلاً عن النفقات المادية التي يبذلها الى ان يرى الاصل الذي انبثقت منه . ولم تكن مجلته « لغة العرب » الا جزء من هذه الابحاث والتصحيحات .

آثاره

خلف الاب انستاس ماري الكرملي آثاراً علمية مفيدة منها ما هو مطبوع ، ومنها ما لم يزل مخطوطاً لم يتوفر على نشره . وقد ساهم في عدة مجلات بنشر المقالات الجيدة والدراسات العلمية الرصينة ، كمجلة المقتطف والهلال ، والمشرق . فضلاً عن مراسلاته لمجلات المستشرقين بالمقالات الممتعة في دقائق اللغة وشواردها . وها نحن نضع ثبتاً باسماء كتبه المطبوعة .

ألف الفقيد الاب الكرملي اكثر من اربعين كتاباً خبأها في صندوق حديدي تحت الارض طوال مدة الحرب ، طبع منها (الفوز بالمراد في تاريخ بغداد) و (خلاصة تاريخ بغداد) و (مختصر تاريخ العراق) و (اديان العرب) و (النقود العربية وعلم النميات) و (جمهرة اللغات) و (المجموع) و (الصحائب) والجزء الثاني من (الاكليل) و (اغلاط اللغويين الاقدمين) و (نشوء اللغة ونموها واكتهالها) و (نخب الذخائر في احوال الجواهر) . . .

اما غير المطبوع من كتبه فمنها : كتاب (العرب قبل الاسلام) و (المجموعة الذهبية) و (السحائب) و (الغرائب) و (الرغائب) و (شعراء بغداد وكتابها) . وله عدة مؤلفات فقدت عند نكبته في العهد التركي كما قدمنا . وله ايضاً كتب دينية وفلسفية قيمة .

ولعل اعظم ما يستطيع ان يفاخر به انصار الفقيد كتابه « المساعد » هذا الكتاب الذي سلخ في تأليفه ومراجعته اكثر من اربعين سنة . وقد نشر منه بعض الفصول في امهات المجلات الشرقية . ولقد كان الفقيد شديد الحرص عليه من الضياع والى هذا الكتاب الثمين نلفت نظر مجمع فؤاد الاول ودار الكتب ودور النشر الكبرى وغيرها من الهيئات المهتمة بالمحافظة على آثار هذا العلامة الجهبذ .

وكتابه « المساعد » يعد بحق من اهم المراجع لدرس اللغة العربية واسرارها . اذ ان صاحبه اعتمد « محيط المحيط » للبستاني واخذ يحذف منه ويضيف عليه ما استجد من اصول لغوية حديثة ومفردات ردها الى اصل قديم . ولا شك في ان عملاً كهذا لا يستطيع القيام به غير جماعات من اهل الاختصاص . ولكن الاب الكرملي استطاع بثقافته الواسعة وبما فطر عليه من جلد وصبر وبهذه السنين الطوال بعيداً عن مشاغل الاسرة والزواج ، استطاع ان يثبت اركان اللغة في هذا المعجم الفريد .

نرى لزاماً علينا ان نستحيي هذا الاثر الفريد الذي خلفه الفقيد . فلا شك في ان الستين سنة التي قضاها في التأليف والتنقيب تعد بمثابة حجر الزاوية في هذه اللغة التي ندأب عليها حريصين من ان تمتد اليها يد بالهدم والتشويه . وقد كان الفقيد امضى سلاح يشهر في وجه هؤلاء . .

ان حياة الفقيد خليقة بكل اكبار واعجاب في زمن طغت فيه العجمة ، وكادت تندك معها لغة الضاد وتصبح اثراً من الآثار القديمة ، وكان بودنا ان نبين ما كانت عليه اللغة آنذاك من جمود وتقلص في عصر لا يرى من الحرية بصيصاً من امل ، وفي بلد يرضخ لحكم اجنبي جائر . وكان من نعم الاقدار للغة العربية ان ينشأ المرحوم انستاس واليازجيان واديب اسحق واحمد فارس الشدياق في عصر واحد ، وفي فترة كادت لغة القرآن تطوى في بطون الكتب وتتوارى ململمة ظلالها .

ويحق لنا ان نتساءل الآن : اي نفع نجنيه نحن كتاب المقالة او القصة من آثار الاب الكرملي وقد انحصرت جهوده في اللغة وحدها ؟ ولكننا نجيب بأن اثر الفقيد الكرملي يعد في نهضتنا كحجر اساسي لهذا الادب العربي الجديد . لقد كان همه ان يبلور هذه اللغة وقام برسالته خير قيام وقدم لنا اداة مرنة صافية يجدر بكل اديب ان يتخذها اساساً لابحاثه ودراساته . وليس من الحق ان نغمط الفقيد الراحل الاب الكرملي اثره في صيانة هذه اللغة من عاديات الايام .

وقد عرفه مقدرو فضله فساهموا مع الآباء الكرمليين في بغداد وتألفت لجنة من معالي السيد يوسف غنيمة ومعالي الدكتور حنا خياط والاساتذة يعقوب سركيس وجان بجوشي وميخائيل عواد ، وعهد اليها امر انشاء بناية جديدة خاصة بمكتبة الاب الفقيد والاشراف عليها وتبويب الكتب وتأثيث قاعات للمطالعة . وقد قرر ان تكون المكتبة على شكل بنايات المكتبات الاثرية الموجودة في باريس وتسمى باسم الفقيد تخليداً لذكراه .

احمد عويدات

ظن عابر

☆

لعبد الحكيم مراد

دمشق

أذكري ليلةَ أغفينا على ... ساعد الحب وأغضت مقلتاه
وتملَّينا من الغيب الرؤى ... وتلاقى كل قلب بمناه
وتلاوين الرؤى مغدقة ... قبلاً ذابت على حلم الشفاه
قلت في الشوق وقالت في الهوى ... وتداعبنا شجوناً وشكاة
ودموعي قصة أنشدتها ... وسكون الليل يحنو جانباه
يا حبيبي ليس الا سِنة ... طافت العمر وعادت بجناه
يا حبيبي ليس الا سنة ... أيقظتنا من تواشيها الغداة
في كرى الايام عشنا حلماً ... ليتها الاحلام ما كانت تراه
خدع موت وظن عابر ... وخيال كل ما كان، صداه
وتقضّى العمر الا خاطراً ... لم يعد في العيش من شيء سواه
وافترقنا لم نزود بعدها ... غير مُرّ الراح من فوق الجباه

***

يا حبيبي قد حرمت القلب ان ... يتسلّى .. وبرغمي ما عداه

☆

لو تعلمين

☆

« ظلمي »

لو تعلمين بقلبي الشوق ما صنعا ... يكاد يطلعه من مهجتي قطعا
تأبى الضلوع عليه ان يفارقها ... فتحتويه وقد ضاقت بما وسعا
فهو السجين وما في السجن كربته ... لو لم يضف من هواك الهم والوجعا
هذا الغرام الذي ما زلت احذره ... وامنع القلب عنه كلما نزعا

***

رويت عادية الاشجان عن كبدي ... بعد الصبا وطويت الوجد والولعا
حتى لقيتك والايام مسعفة ... قلبي وقربك يزجي الانس والمتعا
فعدت للعشق تباوني منازعه ... فلذت بالصبر ما اجدى وما نفعا
وكيف اصبر عن وجه بطلعته ... مباسم الحسن والاحسان قد جمعا

***

تطفو عليه السجايا الغر ناصعة ... ويجتلي الحسن من آياته البدعا
حدثت قلبك عن شجوي وعن كمدي ... وبحت بالسر هل اصغى وهل سمعا
يا ليت شعري فماذا انت فاعلة ... وقد علمت، بقلبي الحب ما صنعا



امهات المؤمنين واخوات الشهداء

للسيدة وداد سكاكيني -- ١٧٥ صفحة – دار الفكري العربي بالقاهرة

هذه فصول تاريخية اسلامية تتناول عدداً من النساء اللواتي كان لهنّ شأن في العصور الاسلامية الاولى باسلوب روائي جذّاب ولعلّه امتع بحث كتب عن النساء المسلمات في عهد الرسول وما بعده ، فهو ولا ريب البحث الاول الكامل عن الناحية العاطفية في حياة النبي ، فالواقع ان كل ما كتب في هذا الموضوع لم يتعدّ روايات قصيرة ونبذاً مختلفة ليس من شأنها ان تلقي الاّ نوراً باهتاً على تلك الحياة الشعورية الفياضة التي عاشها الرسول ، ولقد وفقت الاديبة الكبيرة السيدة وداد سكاكيني كل التوفيق في استخلاص صورة هي اقرب ما تكون الى الحقيقة والواقع عن هذه الناحية من حياة رسول الاسلام . ولا شك في ان هذه صفحة مشرقة بالجمال تكشف اليوم ، فتبرز محمداً اكرم زوج وأرأف اب وابرّ رجل ولئن لم يكن من همّ المؤلفة ان تدقق وتحقق في هذا الذي ترويه انها لم يفتها ان تعتمد في سبيل تدبيج هذه الفصول الرائعة اصدق المصادر واوفى السير.

والفصول الاربعة عشر التي يضمّها هذا الكتاب تُظهر المرأة المسلمة على لوحة صادقة من الحب والتضحية والوفاء والشجاعة والكرم والبرّ والرحمة ، هذه العواطف السامية التي تجعل من اصحابها ابطالاً ، فما انبل خديجة ام الزهراء تحنو على الرسول في اشدّ ايامه قسوة ، فتملأ قلبه بالشجاعة والثقة ، وتضفي عليه المودة كلّها والحب جميعه ، وما ارقّ فاطمة ام الحسنين وابرّها بوالدها ، وما اشجع عائشة واعظم تأثيرها في حياة النبي . وتتناول المؤلفة حياة كثيرات من النساء المسلمات والمجاهدات كزينب اخت الحسين واسماء ذات النطاقين وزينب الاسدية زوجة الرسول ومارية المصرية التي تسرّاها النبي ثم رفعها الى مقام ازواجه ، والخنساء الصابرة في جاهليتها واسلامها وام معاوية وغيرهن . . .

والميزة الكبرى التي تتحلى بها المؤلفة الفاضلة ، هي هذه القدرة العجيبة على السرد المطمئن الهادىء ، البالغ حظاً كبيراً من السلاسة والجاذبية ، وهذه القدرة تظهر براعة قصصية ليست غريبة على السيدة وداد سكاكيني التي مارست القصة ممارسة جدّ موفقة ، وبوسعنا ان نعتبر هذه الفصول قصصاً رائعة من صميم الحياة والواقع على الرغم من انها لا تراعي دائماً مقوّمات القصة .

وابرز عناصر هذه المقدرة تتجلى في هذا الفيض من الشعور والحساسية والعاطفة المرهفة ، فان تحليل المؤلفة لمشاعر ابطالها او بطلاتها يوفي على الغاية في القوة والتأثير ، والذي يقرأ فصل « ام الحسنين » لا يتمالك نفسه عن امساك دمعة تطفر الى عينيه اذ ينتهي الى آخره ، لشدّة اللوعة التي تفيض به ، ويعد فصل « وفاء بنت الرسول » قطعة رائعة في الوصف والتحليل كما ان الوصف بلغ غايته وكنهه في تصوير بطولة خولة بنت الأزور وشجاعتها الى جانب اخواتها العربيات . على اننا نأخذ على المؤلفة انها اقتضبت كل الاقتضاب فصل ذات النطاقين ، وكادت تهمل حديثاً رائعاً ممّا سجّل التاريخ في مثل قوته ، دار بين اسماء وابنها ، ولست ادري السبب في ان المؤلفة اختصرت هذا الفصل اختصاراً كبيراً ، حين اخذت على عاتقها ان تروي التاريخ موسعاً وتروّىء فيه .

واما اسلوب الكتاب ولغته ، فهما الرقة والعذوبة وقوة الديباجة جميعاً ، ولا شك في ان وداد سكاكيني تأتي في مقدّمة الاديبات العربيات من حيث اللغة الغنية الزاخرة بالالوان والالحان .

وبعد ، فان « امهات المؤمنين واخوات الشهداء » من خيرة الكتب الادبية الروائية التاريخية ، فضلاً عن انه اول مؤلف وافٍ عن الجو الشعوري العاطفي في حياة الاسلام الاولى .

سهيل ادريس

١ — عذارى

للاستاذ عزمي علي البغدادي – ١٢٨ صفحة – منشورات المكتبة الكبرى بدمشق

هذا كتاب لا يمكن تحديد فحواه ومحتواه ، فليس هو مجموعة من القصص وليس بمجموعة مقالات ادبية ، ولا خواطر فكرية ولا احاديث سياسية او فنية ولا تأريخ اوغير ذلك من فنون الادب . كل ما هنالك ان المؤلف كتب عدة فصول في الغزل (!) فجمعها وصار منها هذا الكتاب . وليته كتب في الغزل باحثاً او

محللاً او قاصاً . بيد انه عمد الى نوع من الوصف المغرق لجمال المرأة يبدأ كل فصل به وينتهي دون ان يكون هناك فكرة او غاية بينها يدور حولها الكلام، وذلك باسلوب يملأ القارىء منذ الصفحة الاولى لما فيه من الاسهاب وترداد الجمل والاكثار من المترادفات .

واراد المؤلف ان يضمن الفصل الاخير « لقاء » خواطره في الادب والفن مقلداً توفيق الحكيم او احمد الصاوي محمد، فروى لنا ان غادة على قسط وافر من الجمال دخلت عليه في غرفته فلم يشأ ان يكلمها (؟) فعمدت الى تقليب ما تحويه مكتبته من الكتب الكثيرة التي يعدد اسماءها ثم تنظر الى الجدران فيعدد ايضاً اسماء مئات الصور المعلقة كأنها في معرض فني ! وهنا يعرض علينا آراءه وخواطره البعيدة كل البعد عن الدقة وتحري المنطق واثبات الحجة . فهو مثلا معجب اشد الاعجاب بطه حسين والرافعي ساخط اشد السخط على العقاد متحمس للامويين ناقم على العباسيين الخ . . . وتنتهي القطعة دون نتيجة كما ابتدأت .

فعسى الا يتسرع منتجون من الشباب الى نشر آثارهم قبل ان تكون قد اشبعت درساً وتمحيصاً كي تجيء وفيها بعض من الفائدة الى بعض من المتعة الفكرية الخالصة ..

٢ — مسرحيات

للاستاذ اسماعيل حسني — ٣٧ صفحة — مطبعة السلام — حلب

تحتوي هذه المجموعة الصغيرة الحجم على اربع مسرحيات وضع المؤلف منها اثنتين وترجم الاثنتين الاخريين . الا ان الاربع تنم عن بداية حميدة في معالجة هذا الفن . فالاولى « بعد الاصيل » وهي موضوعة ليست الا حواراً بين رجل اديب وراقصة كلاهما في خريف العمر . يتذكران الماضي ويتناقشان في مؤهلات كل جنس منهما فتبدو المرأة كتلة من الغرائز والشهوات ، والرجل مرهف الحس سامي المدارك ، مهذب الحواس . واظن ان في ذلك كثيراً من التجني على المرأة بوجه عام وكثيراً من الاطناب في مزايا الرجل ، وبعداً عن الحقيقة الراهنة .

اما المسرحية الثانية الموضوعة فتعطينا صورة لنهاية امرىء القيس ابان كان في القسطنطينية وحب الاميرة هيلانة له وحمله الثوب المسموم معه حيث قضى عليه وكيف بقيت هيلانة على اخلاصها في حبه . وهذه المسرحية وان كانت تعرض ناحية مجهولة من حياة الملك الضليل الا انها خلت من عنصر التشويق ومن العقدة التي هي اهم ما ترتكز عليه المسرحية . كما ان حوار المؤلف كان ضعيفاً في المسرحيتين تنقصه في كثير من المواضع خفة السرد وقصر الحديث .

وبالاجمال فموضوع المسرحيتين مبتكر وفكرتها جديدة ، وقد وفق المؤلف بمعالجتها رغم بساطة تركيبها وخلوهما من العقدة ومن تشابك الاحداث .

وهناك المسرحيتان المترجمتان وهما « نهر الحياة » عن « آلان دارسيه » والمفتش عن « غوغول » كان بامكان المؤلف ان يختار خيراً منها للترجمة اذ انها من المسرحيات الساذجة الضعيفة .

٣ — حسناء لبنان

للاستاذ فريد مدور — ١٩٢ صفحة — منشورات دار الكتاب — بيروت

ان قصة الصراع بين القرية والمدينة او بين تقاليد ابناء الجبل وعادات المدنية الحديثة من الموضوعات القديمة التي طالما تناولها الكتاب والمؤلفون والقصصيون بالمعالجة والتحليل والدرس .

وتأتي « حسناء لبنان » فتدور حوادثها حول هذا الموضوع ايضاً وتعرض لنا صوراً حية عن عادات القرية من دبكة واجتماعات ولعب الخ . . . وتصف اللون المحلي بكثير من الدقة والابداع . وفي هذا الجو البري . يحب انيس وداداً حباً طاهراً بعيداً عن نزوات النفس الى ان تقوده قدماه الى « الجامعة » ليتعلم ، فيتعرف على « ايفيت » التي توقظ رغباته الجنسية وهنا يوفق المؤلف في تصوير هذه المشاعر وابرازها بشكل رقيق ، ويحضر اخيراً عم انيس وولي نعمته من اميركا فيجده غارقاً في ملذات المدينة بعيداً عن حبيبته القروية وداد وينتهي الامر بأنيس ان يصبح منبوذاً وقد اصيب بداء الصدر ولا يجد من يؤاسيه سوى حبيبته الاولى

هذا هو هيكل القصة بصورة اجمالية الا ان المؤلف لم يحسن التوازن الكافي في سرد الاحداث فجعلها تتراكم بكثرة في بعض المواضع دون ربط او انسجام ، وجعلها مطاطة في بعض المواضع الاخرى بها كثير من الاسهاب والتطويل . وهذا يوقع القارىء في كثير من الالتباسات التي لا تتفق والواقع ، فتثير التساؤل والاستفهام وتركها المؤلف دون تعليل او حل ، فمثلا لماذا جعل عم وداد على هذه الدرجة من الغباوة ؟ ولماذا دبر مكيدة خطف وداد ؟ وكيف عاد عم انيس الى منزل وداد وهو لا يعرفها ؟ وكيف عرف منزل ايفيت .

هذا من ناحية موضوع الرواية اما الاسلوب فهناك اغلاط لغوية صرفية عديدة ترد في بعض الصفحات وفي بعض من المواضع تجيء لغته وهي اقرب الى العامية

ومهما يكن فالقصة على قسط وافر من الجمال .

اديب مروه

— تتمة المنشور في الصفحة ١٢ —

لترغب في ان تهتم بقليل او كثير بصيانة مستندات او محفوظات تكون حجة قاطعة عليها في اغتصابها الامر . وهكذا نرى انه باستثناء بعض المحفوظات الاسلامية التي قيض لها الوصول الينا سالمة فان معظم الوثائق القديمة المتخلفة عن الدول الاسلامية قد لحقها الفناء المحتوم .

الاستثناء والشذوذ

هذه قاعدة عامة مطردة اتسمت بها محفوظات الشرق الاسلامي على الاجمال ولم يشذ عنها الا الدولة العثمانية وحدها حيث تتابع فيها نظام الحكم طيلة خمسمائة سنة بدون انقطاع . ونظام الحكم في تركيا العثمانية هو المثال الوحيد في تاريخ الشرق الاسلامي لاستمرار الحكم واستقراره طيلة خمسة قرون بدون انقطاع . فالنظام العثماني هو البناء السياسي الوحيد الذي قام في الاسلام كل هذه المدة . وما كاد النظام الجمهوري يعلن في تركيا حتى صدرت الاوامر بوجوب صيانة تراث العهد الماضي وتعهد محفوظاته الرسمية بالعناية والرعاية والاعتناء بتنسيقها تنسيقاً علمياً وفنياً يسهل معه الاستفادة من كنوزها الفنية .

بين المحفوظات التي تعود الى تاريخ الاجيال الوسطى في الغرب عدد كبير منها ما يتعلق بالامور القضائية والشرعية الكثيرة التي نظر فيها القضاء اذ ذاك وحفظ اوراقها ومستنداتها . فللاسلام ايضاً ولدوله المختلفة قضاؤه الخاص . فالقاضي في الاسلام موكول اليه النظر في امور العدل والقطع فيما يشجر من خلاف بين الافراد . الا ان نظام القضاء اذ ذاك يوجز المعاملات الاجرائية الخطية ويبسطها جداً اذ الدليل الاول الى الحق الشهادة الشخصية الناطقة دون الشهادة المحرزة كتابة . فلم يكن ليبقى من المقاضاة او المحاكمة الا حكم القاضي نفسه مسجلا ومحيزاً بنص خطي ، يبلغ منطوقه الى المتداعين ويحفظ في سجلات القضاء ، وهذه من سجلات الدولة الرسمية . وهي بهذا الوصف عرضة للمخاطر نفسها وللامن التي هددت او تهدد العقود والمحفوظات الرسمية الاخرى في الدولة عندما تدول الدول ويتغير معها وجه الدهر .

على ان دور القضاء والافتاء وكتابة العدل وامانة السجلات المنتشرة في العالم الاسلامي تعج بالوف المحفوظات من الصكوك الاصلية والاوراق الثبوتية التي تتعلق بادارات الحبوس والوقوفات والاعمال المسبولة على البر ، يتدبرها المؤرخ ويعالجها مستندات واصولا اولية اصيلة يؤيد بها ما يذهب الى تقريره من تاريخ البلاد في شتى نواحيه الاجتماعية والاقتصادية في الحقبة التي يؤرخ لها .

المهمة المتوجبة على الدول العربية الحديثة

ينتج مما تقدم بيانه لزوم العناية بمحفوظاتنا الشرقية في كل من البلاد العربية التي يقوم فيها مثل هذه الودائع الهامة وضرورة العناية بها بصورة علمية وفنية . فيتحتم قبل كل شيء جمعها في دور خاصة والعهد بها الى طائفة من ارباب العلم والمفهرسين ينصرفون الى تدبرها تنسيقاً وتبويباً ، ووضع ادلة لها ميسرة يستطيع معها الباحث ان يصل دونما عناء الى ما يرغب به من سند اصيل يؤيد معه بالحجة والدليل القاطعين ، نفياً او اثباتاً قطعاً او جزماً ، رأياً له في مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية في الحقبة او في القطر الذي يؤرخ لها ؟

وما الاقتراح الذي نتقدم به الى حكومات الاقطار العربية مما يصعب الأخذ به بعد اليوم ، اذ لا تخلو احداها حتى اقلها تطوراً علمياً او اجتماعياً من شباب تحصلت له اسباب التعليم الجامعي او كان عضواً في احدى البعثات العلمية الى الغرب ، فتسند اليهم امر العناية بهذه المحفوظات والسهر عليها على الشكل المرغوب فيه . وهذا ما حدا بنا الى القول بوجوب تدريس علم المحفوظات (Archivistique) في مدرسة المكاتب التي اقترحنا على جامعة الدول العربية وعلى الحكومة المصرية انشاءها في مثل هذه المعطفة من تاريخنا الحديث ، وابدنا ما يجب ان يكون عليه منهاج التدريس في هذا المعهد كما اثبتنا ذلك في مقالنا الاسبق المنشور في الاديب (عدد ك ١ ١٩٤٦) .

اما كنوز محفوظاتنا التاريخية المصونة بامان وعناية وتدبر علمي في دور المحفوظات في الغرب مما اتينا على ذكره ، فنحن نقترح على جامعة الدول العربية وعلى كل من دول هذه الجامعة منفردة ان تعير هذه الناحية الشيء الكبير من عنايتها ايضاً . مثال ذلك ان تؤمن بصورة دائمة وجود بعثة علمية من ذوي الاختصاص تتولى معالجة محفوظاتنا الشرقية في الغرب ، فتقوم بنقل او نسخ او تصوير ما تراه عنصراً هاماً من عناصر تاريخنا الشرقي فتبعث به الى مكتبة الجامعة العربية المنوي تأسيسها .

كذلك نرجو ان يقوم الى جانب المعتمديات التي تنشئها الدول العربية في الغرب ملحقون ثقافيون يعهد اليهم فيما يعهد من القضايا والمهام ، الاهتمام بتنظيم المحفوظات والمستندات والوثائق التي تتعلق بتاريخها في مختلف ادواره وحقبه ، والتعريف بها وبمحتوياتها وتصوير المهم منها وارساله الى دور الكتب او دور المحفوظات ، في بلادهم .

يوسف اسعد داغر



هذا وصف حفلة قومية عظيمة، جديرة بأن تسجل وتدون سلم فيها علم اللواء الاول في الجيش العربي الفيصلي الى متحف دمشق .

وان هذا العلم ، لجدير ، بهذا الاحتفال ، وانه لجدير بأعظم منه لانه ظل من ظلال عهد ، فريد ، رائع ، اقامه الملك العظيم فيصل في سورية العربية ، فكان زاخراً بالاماني القومية ، فياضاً بجهاد الاحرار وبحماسة المخلصين ، وبتضحيات الشعب ، من جهة ومحاطاً بدسائس المستعمرين من جهة اخرى* .

انه ظل من ظلال استقلال سورية وكرامتها، في عهد مليكها المغفور له فيصل

***

ولهذا العلم قصة طريفة . فقد كان علم اللواء الاول المشاة في الفرقة العربية السورية الاولى. عقد لواءه جلالة الملك فيصل الاول ، لقائد اللواء العقيد ، اذ ذاك، تحسين الفقير، بحفل عسكري رسمي، بحضور سمو الامير زيد ، ووزير الحربية يوسف بك العظمة .

وقد اشترك العقاب في معركة ميسلون ، واستبسل الجندي الذي كان يحمله بالدفاع عنه، واحتفظ به، ثم حفظه لديه العقيد تحسين الفقير.

وقد حاول الفرنسيون ، بوسائل شتى، ان يأخذوا هذا العلم لايداعه متحف باريس . ولكن الفريق المتقاعد تحسين باشا احتفظ به ، واخفاه حتى انه اضطر ، لكثرة مضايقة الفرنسيين ، الى اخفائه في الارض تحت التراب ، واصابه من مشاكسة الفرنسيين ، في سبيل ذلك ، الشيء الكثير .

ولما خرج الفرنسيون من دمشق ، ابدى الفريق تحسين باشا رغبته الى فخامة رئيس الجمهورية السورية بأن يحفظ هذا العلم في متحف دمشق . فاصدر فخامته الرئيس امره بالموافقة، ورأى ان ينقل الى المتحف بحفل عسكري يليق بهذا العلم وبالذكريات التي تحف به .

واهتم معالي وزير الدفاع الوطني احمد الشراباتي بك بالامر كل الاهتمام ، واوعز بان تقام حفلة رائعة لذلك .

واقيمت الحفلة في متحف دمشق ، والفت قيادة اللواء الاول في الجيش السوري ، سرية لنقله من دار الفريق تحسين باشا الفقير الى متحف دمشق، وعين يوم ٢٨ ايلول سنة ١٩٤٦ موعداً لذلك .

وقد تشكلت السرية مما يلي :

١ — موسيقى الجيش السوري

٢ — فئتين من فوج المدرعات . كل فئة تتألف من ثلاثين جندياً ، فيها ستون جندياً .

٣ — فئة من فوج المدفعية الاول . وعددها ثلاثون جندياً .

٤ — فئة من سرية مقر اللواء الاول . وعددها ثلاثون جندياً مع ضابط لهم .

وتألف حرس العلم من :

ملازم اول يحمل العلم ،

ملازمين يحرسانه ، مع السيوف .

وقد انتظرت فئة المدفعية ، مع حامل العلم وحرسه امام مجرة شارع بغداد، في الساعة السابعة والنصف من صباح يوم الاحد ٢٨—٩—١٩٤٦ ثم لحقت بهم موسيقى الجيش . وسارت هذه المفرزة الى دار الفريق تحسين باشا الفقير، فكانت عنده في الساعة الثامنة .

وفي الوقت نفسه ، اجتمع بواقو الفوج الثاني المشاة مع بقية الفئات ، في باحة سرية مقر اللواء ، وسارت في الساعة الثامنة والنصف الى حديقة المتحف .

ولما وصلت المفرزة الاولى الى دار الفريق ، في عرنوس ، اخرج العلم ، وحمل ، بكل مهابة وجلال ، وساروا به الى المتحف .

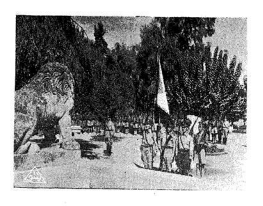
العقاب

علم اللواء الاول المشاة ، في الفرقة العربية الاولى في متحف دمشق

بقلم صلاح الدين المنجد
رئيس ديوان مديرية الآثار العامة

* نحيل القارىء لمعرفة هذا العهد ، الى الكتاب النادر الجيد الذي وضعه العلامة الكبير ساطع الحصري عن « يوم ميسلون » . فهو اوثق واصح مايرجع اليه في هذا الشأن .

وفي المتحف اصطف الجنود بالترتيب الآتي :
•وسيقى الجيش ، امام مدخل المتحف ، على يمين الداخل
ووقف حامل العلم وحرسه امام الاسد الكبير.
ووقف الضباط امام باب المتحف .
وسائر الجنود في الحديقة.
وقد عني بأمر لباس الضباط والجنود.



الجنود يحملون العلم امام أسد متحف دمشق

●



الفريق تحسين باشا الفقير يلقي خطاباً
بحضور معالي السيد احمد الشرباتي وزير الدفاع
والاستاذ صلاح الدين المنجد
رئيس ديوان مديرية الآثار

●

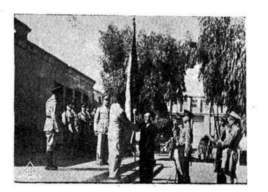
فالضباط كانوا يلبسون بنطال* ركوب (بيج او كتان)
مع ساق جلدي – وقميص كتاني – ونطاق مع حمالة – عمرة –
– وسيف – وكفوف.
والنقباء كانوا يلبسون بنطالا قصيراً – وقميص صوف – مع
ساق كتاني – وكاسية ساق صوف – وعمرة – والجعب .
والجنود كانوا يلبسون قميص صوف – وبنطالا قصيراً – مع
ساق كتاني اميركي–وكاسية ساق صوف– وفيصلية–والجعب.

***

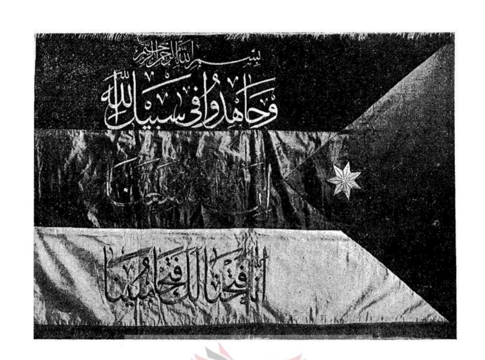
وتوافد كبار القادة ، وحضر زعيم الجيش فاستعرض الجنود
مع قائد اللواء الاول ، وحضر الفريق تحسين باشا.

●

معالي وزير الدفاع يتسلم العلم



* تعريب كلمة– Pantalon الفرنسية .



وفي الساعة التاسعة حضر وزير الدفاع ، احمد بك الشراباتي فاستعرض الجنود ، ثم تقدم الفريق تحسين باشا ، فألقى خطاباً بيّن فيه ان هذا العلم هو عام ، عزيز ، مجيد ، عظيم . وانه حافظ عليه مدة طويلة ، وحماه من كيد المستعمر الذي حاول ان يغتصبه كما اغتصب غيره . وانه لقي في سبيل حمايته وحفظه كثيراً من العذاب ورجا الجنود ان يفدوا العلم ويحافظوا عليه .

وتقدم الفريق ، فتسلم العلم من حامله ، وسلمه الى معالي وزير الدفاع

ورؤي معالي الوزير يتأثر بهذا المشهد الرائع ، فعانق العلم وقبّله ، ثم حمله وسلمه الى ادارة المتحف .

***

اما وصف العلم ، فهو :

من الحرير الفاخر المبطن . كل وجه فيه ثلاثة الوان ابعادها متساوية . يقطعها من طرفها الايمن مثلث .

يبدأ اللون الاسود ، وفي الوسط اللون الاخضر ، ويليه اللون الابيض في الاسفل .

والمثلث احمر ، في داخله نجمة سباعية بلون فضّي .

وقد كتب عليه : لا إله إلا الله . . ان الله معنا . . . .

والكتابة كلها بخيوط مذهبة .

وعلى اطراف العلم ذلاذل تتدلى .

وطوله ١٨٨ سم ، وعرضه ١٢٣ سم .

***

وهكذا قيّض الله لهذا العلم ، ان يخرج من مخبأه ، وان يحمل الى حيث يحفظ ، بتجلة ، جديرة به وبالذكريات التي يبعثها ويحييها*.

دمشق — صلاح الدين المنجد

* الصور المدرجة في هذا المقال من تصوير السيد شفيق الامام المساعد الفني في مديرية الآثار العامة .



٣١ كانون الثاني–صرح سماحة الحاج امين الحسيني لمراسل الديلي مايل انه ما دام مشروع تقسيم فلسطين على جدول اعمال مؤتمر لندن فان ذلك المؤتمر سيفشل حتماً .

٣ – شباط : اعلنت وزارة الخارجية الفرنسية ان المرشال ستالين قد رفض الوسام العسكري الذي يعتبر ارفع وسام فرنسي . ويعلل ستالين ذلك بالتقاليد الروسية التي تحرم على اي زعيم ان يقبل وساماً اجنبياً .

٤ – وقع وزير الخارجية البريطانية المستر ارنست بيفن معاهدات الصلح مع الدول الخمس التابعة للمحور سابقاً وقد وقعها مولوتوف في موسكو باسم روسيا .

٥ – بدأت ازمة الفحم في بريطانيا تؤثر تأثيراً كبيراً على انتاج الصناعة البريطانية، وقد قررت الوزارة عقد اجتماع خاص لدرس القضية بغية زيادة الانتاج وابعاد شبح البطالة .

– ادلى الدكتور فاضل الجمالي وزير الخارجية العراقية لمراسل رويتر قال :

ان الحل الوحيد لقضية فلسطين هو قبول المشروع العربي الذي يضمن الديمقراطية والعدالة للجميع . اما اذا لم يقبل هذا المشروع فما لاشك فيه ان الاضطراب سينشب حتماً وسيقوم به العرب هذه المرة

٦ – كتب الاستاذ ستايك استاذ الفلسفة في جامعة برنستون مقالا مطولا عن فلسطين جاء فيه : ان قضية فلسطين العربية هي في ذمة مبادىء العدل الدولية ، وان الصهيونيين في محاولتهم فرض الهجرة اليهودية على الارض المقدسة على نطاق واسع بالرغم من ارادة العرب اصحاب البلاد هو عمل غير محق .

٧ – نفى جلالة الملك عبدالله ملك شرق الاردن في رسالة بعث بها الى رئيس الجمهورية السورية الانباء المزعومة عن حشد قوات اردنية على الحدود السورية .

٨ – سلمت القيادة البريطانية ثكنات مصطفى باشا الى الحكومة المصرية وكانت القوات البريطانية تحتل هذه الثكنات منذ عام ١٨٨٢

– اعلن السيد حمدي الباججي ان الحكومة البريطانية تستطيع ان تسحق الارهاب اليهودي في فلسطين سحقاً وتقضي عليه قضاء مبرما فيما لو شاءت ذلك .

٩ – اعلن دانغ شان ليو ممثل حكومة فيات نام الرسمي في لندن ان فرنسا لن تستطيع مطلقاً قمع حركة المقاومة التي يقوم بها الوطنيون .

١٠ – صرح رئيس جمهورية فيات نام بانه يعتزم عرض قضية بلاده على هيئة الامم المتحدة اذا رفضت فرنسا تسوية القضية سلمياً .

١١ – اذاع راديو طهران ان جلالة الشاه قد وافق على تعيين الوزارة الايرانية التي الفها السيد قوام السلطنة .

– تم توقيع معاهدات الصلح مع الدول المحالفة للمحور وافتتح الاحتفال المسيو بيدو وزير الخارجية الفرنسية .

– رفض مندوبو الدول العربية المقترحات البريطانية التي ترمي من ورائها الى انشاء دولة يهودية .

١٢ – قررت الحكومة الفرنسية الافراج عن الامير عبد الكريم والسماح له بالاقامة في جنوبي فرنسا .

– تلقت وزارة الخارجية السورية من مفوضيتها بباريس نبأ يفيد ان سلطات الاحتلال الروسية في المانيا قد اطلقت سراح المجاهد فوزي القاوقجي .

١٣ – ابلغت هيئة الامم المتحدة الحكومة السورية نص القرار بشأن منح المرأة جميع الحقوق الممنوحة للرجل .

– قسمت القدس الى اربع « مناطق امن » وذلك لمنع الارهابيين اليهود القيام بالفوضى والاضطرابات .

١٤ – اتخذ مجلس البلدية ببرلين قراراً ناشد فيه الحلفاء ان يرسلوا الى المانيا كميات اضافية من الاغذية لانقاذ السكان .

– صرح المندوب اليوغوسلافي ، امام وكلاء الخارجية ان النمسا تتبع سياسة نازية وانها تضطهد اليوغوسلافيين في كارينتيا

– اقتحمت عصابة يونانية مسلحة سجن سبارطه في شبه جزيرة الموره واطلقوا سراح المعتقلين السياسيين ثم لاذوا بالفرار .

١٥ – اصدر قائد قوات اندونيسيا الجمهورية امرا عاماً بوقف القتال ضد الهولانديين .

– ابرم المجلس الوطني التركي اتفاقية الصداقة المعقودة بين تركيا وشرق الاردن .

– اعدم ستة من النواب السابقين في البرلمان التشيكي عن بلاد السوديت بعد ان حاكمتهم المحكمة العسكرية بتهمة الخيانة العظمى .

١٦ – كان لنعي الدكتور ايوب ثابت نائب بيروت ورئيس الدولة السابق صداه في الاوساط السياسية وقد شيع جثمانه في مأتم وطني واعلن الحداد في الدوائر الحكومية مدة ثلاثة ايام .

١٩ – القى الامين العام لهيئة الامم المتحدة خطاباً قال فيه . ان الحرب بين الدول الكبرى في الوقت الحاضر « حلم من احلام المجانين»

صرح ناطق بلسان الحكومة الايرلندية ان الحكومة على استعداد لايواء الجنرال فرانكو اذا شاء الالتجاء اليها .

٢٠ – قدم المستر هوستون بوزوال وزير بريطانيا المفوض في لبنان اوراق اعتماده الى رئيس الجمهورية اللبنانية .

٢٢ – زار فخامة شكري القوتلي رئيس جمهورية سوريا العاصمة اللبنانية ومكث فيها يومين وقد استقبلته الحكومة والشعب بمهرجان رائع .

٢٤ – وصل المجاهد فوزي القاوقجي الى مصر ونزل ضيفاً على صديقه عبد الرحمن عزام باشا امين الجامعة العربية .

٢٦ – صرح وزير الدفاع البريطاني في مجلس العموم ان بريطانيا قررت الجلاء عن دلتا النيل في نهاية آذار القادم .

– اصدر الرئيس ترومان مرسوماً عين بموجبه المستر لويس ويليام دوغلاس مستشار الحكومة العسكرية الاميركية في المانيا سفيراً للولايات المتحدة الاميركية في لندن .

٢٧ – وجه الدكتور فاضل الجمالي وزير خارجية العراق نداء الى اصدقاء العرب بالشرق والهند دعا فيه الى نصرة عرب فلسطين من الخطر الصهيوني الاوروبي .

٢٧ – تلقت الحكومة اللبنانية دعوة الاشتراك في مؤتمر الطيران العالمي الذي سيعقد في باريس في ١٥ نيسان .